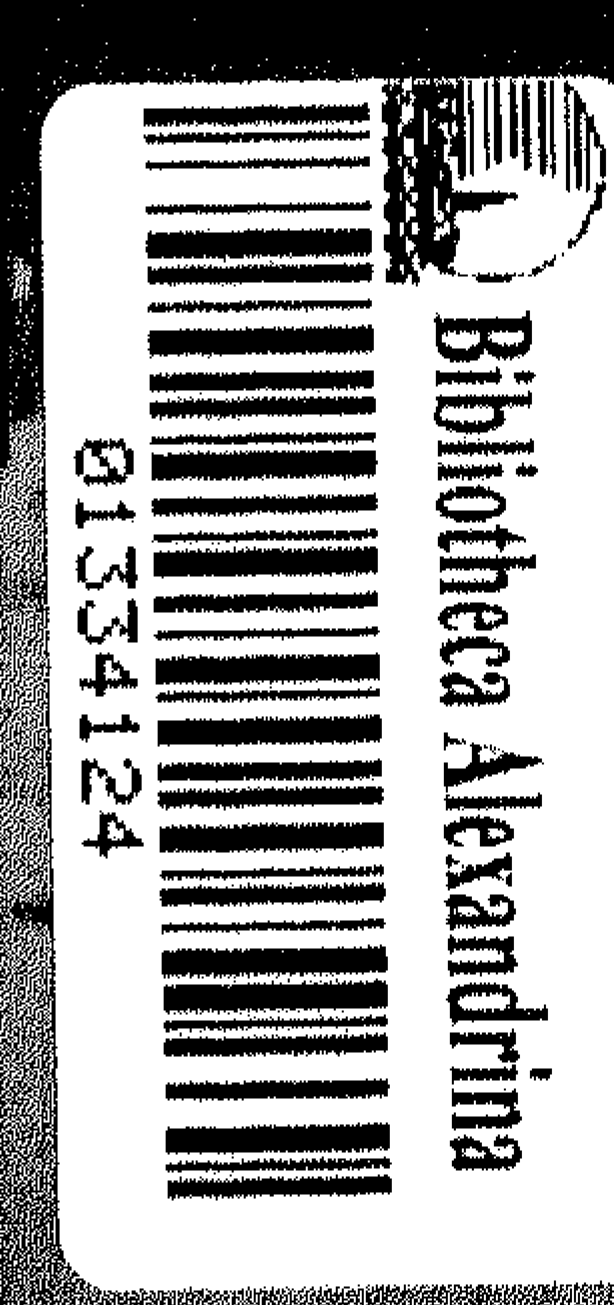
كومبيو نشر

يوميات بريماكوف في حَربِ الخليج

حرب كان تجنبها ممكناً

يفغيني بريماكوف



يـوميات
بـريماكوف
في حَربِ الخليج

الطبعة الأولى
١٩٩١

الناشر: كومبيونشر (للدراسات والإعلام والنشر والتوزيع)
العنوان: بيروت - سوق الروشة الجديد - بئر حسن - بلوك D 1045
تلفون: ٨٢١٨٦٢ - ٨٣٢٢٦٣. فاكس: ٨٢١٨٦٢ LE.
ص.ب. ٥٢٨٣ - ١١٣

يوميات بريماكوف في حَربِ الخليج

حرب كان تجنبها ممكناً

يفغيني بريماكوف



للدراسات والاعلام والنشر والتوزيع

تقديم

كانت المقالات التي كتبها المبعوث الرئاسي السوفياتي يفغيني بريماكوف، عن حرب الخليج، الوثيقة الرسمية الوحيدة، الموقعة من صاحبها، والتي تكشف في نفس الوقت، حقيقة الحرب التي كان تجنبها ممكناً.

وإذا كانت مساعي بريماكوف لتجنب تلك الكأس المرة لحرب الخليج، تشكل الجهد الرئيسي المبذول من الرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشوف في هذا الاتجاه، فإن التعامل السلبي من قبل الرئيس العراقي مع هذه المساعي، رغم المكانة الاستراتيجية السياسية والاقتصادية والعسكرية التي يمثلها الاتحاد السوفياتي بالنسبة للعراق شكل إغلاقاً نهائياً لنافذة الحلول السياسية، وفتحاً لمزالج باب الحرب المدمرة دون ضوابط.

ولو كنا نتحدث في وقت لا تزال رحى الحرب دائرة، لكانت التكهنات لا زالت مستمرة، هل أخطأ الرئيس العراقي أم أصاب؟

لكننا نكتب، فيما أيام محدودة من الحرب، حسمت مصيرها ودمرت العراق وراءها، وبات السؤال، هل يبقى الرئيس العراقي أم يرحل؟

ولأن ما حدث، قد حدث، ولأن هول الكارثة أكبر من أن يلحظ في مدى الأيام والسنوات القادمة، فان أحداً يجب أن يحاسب، ويحاكم، هذا الذي جازف بالعراق والعرب من ورائه في حرب مجنونة مدمرة، لا لشيء، إلا لغرور قاتل وشهوة سلطة، او لشيء آخر لا نعرفه لكننا نشك به، إذ لا يعقل ان نفسر الامور دائماً على ظاهر النوايا.

على أية حال، قيمة ما كتبه بريماكوف مزدوجة، فهو كلام من موقع القرار في دولة الشريك الثاني في اللعبة الدولية الكبرى، ومهما كان حجم دور هذا الشريك ضعيفاً إلا أنه يبقى الشريك، الذي يعرف ويرى ويسمع، ويستطيع من موقعه هذا ان يقول.

أما القيمة الثانية، فهي أن بريماكوف الذي اختصر بعنوانه مضمون مداخلته الغنية بالمعلومات، الوفيرة بالمقابلات، قد أشار عبر هذا العنوان، إلى حجم الخطيئة بل الجريمة التي اقترفها رئيس العراق.

وان كان باب الاجتهاد والتنبؤ والتساؤل، مشرعاً في أيام الحرب، ماذا عساه يخبىء؟ أين الاسلحة الكيماوية؟ لا بد أن

مفاجأة قيد التحضير؟ الا أنـه بعدمـا اظهرت الحرب نفسها، النتائج، فقد بات الباب الوحيد المفتوح أمام العرب هو باب الاختيار، بين غوغائية تخفي وراءها، في كثير من المرات شبهة او عمالة مهما ارتفع ضجيج الشعارات وصخب الحماسة الوطنية والقومية، وبين عقلانية حكيمة لم ترم السلاح، ولا استسهلت التنازل، إلا أنها أجادت فن القيادة، واحتفظت لنفسها دومـا بتحديد زمان ومكان «المنازلات الكبرى».

إن من يرى أمام عينيه كيف تصرف الرئيس حافظ الأسد تجاه القضايا المصيرية الكبرى، ومن بينها قضية لبنان، وقضية الخليج ومعهما، ملفات أخر، لا يستطيع إلا أن يسجل شهادته لهذه القيادة الفذة، ويدعـو الى حسم الأمر لهـذا الطراز من القادة، لأنه لن يكتب للعرب أن ينالوا حقهم إلا بقيادة حكيمة ووحدة عـزيـزة وكـلاهمـا لغـزٌ محـيرٌ لهـذا العصـر، في ظـل متغيرات جوهرية، وتبدلات سريعة، ومعادلات جديدة، نملك الأمل أن يتوطد للعرب توحدهم مع القيادة التي شقت طريقها بوضوح شديد، في إدارتها لملف أزمة الخليج، وتكرست مع اعلان دمشق للدول العربية الثمانية.

من قراءة هذه المقالات، سيتسنى للقارىء العربي، أن يطلع على يوميات بريماكوف في حرب الخليج، وقلبه ينفطر ألماً لما وقـع على العراق من دمـار وخراب، بسبب رعـونة

القيادة، كما سيتسنى للقارىء في آن واحد، ان يتفكر في عمق وخطورة أزمة القيادة.

ناصر قنديل

القسم الاول

اقتحمت الدبابات العراقية في الثاني من آب (أغسطس) ١٩٩٠ حدود الكويت واندفعت داخل أراضي هذا البلد. وبعد بضعة أيام ضم العراق هذه الدولة - العضو في هيئة الأمم المتحدة - إلى أراضيه ومن ثم أعلنها المحافظة رقم ١٩ بين محافظاته. إزاء ذلك كان رأي المجتمع الدولي بأغلبيته العظمى واحداً وطالب بانسحاب العراق من الكويت بلا قيد أو شرط وبإعادة السيادة إلى هذا البلد. وأصدر مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة القرارات الخاصة بهذا الصدد علماً بأن إقرارها قد جرى بسرعة وعلى ما يرام - على غير ما هو مألوف من مثل هذه الحالات من أعمال تنسيق طويلة ومن تشنجات دبلوماسية - وحتى بصدد تلك القرارات الخارقة للعادة التي قضت بتوقيع عقوبات اقتصادية بالغة الصرامة على العراق.

بيد أن خط مجلس الأمن الدولي الذي ازداد قسوة من قرار إلى آخر لم يؤد إلى النتائج المأمولة. وبدلاً من ذلك تصاعدت أعمال العراق المنافية للقانون. وهنا قد أثرت على

الأرجح طباع صدام حسين النفسية. ويجوز أنه قد اعتقد ـ وأنا لا استبعد ذلك ـ أن لديه متسعاً من الوقت كافياً للمناورة وأن عليه أن يبدأ من أشد المواقع صرامة.

كان هناك حل بديل

في وقت واحد مع عمل مجلس الأمن الدولي جرى على نطاق واسع نقل قوات اميركية وقوات تابعة لدول أخرى بما فيها عدد من الدول العربية إلى المملكة العربية السعودية التي توجهت إلى واشنطن طالبة مساعدتها لخوفها من أن تغدو الضحية التالية للأفعال العسكرية العراقية.

إن العقوبات الاقتصادية الصارمة واستعراض القوة على ذلك النطاق الواسع قد تركا ومهما كان ذلك تناقضاً «مجالاً» للعثور على مخرج سلمي من المأزق الذي دفع صدام حسين الحالة إليه. في البداية تقدم العرب إلى مقدمة المسرح السياسي، وكان ذلك طبيعياً لأن النزاع مس في البداية دولتين عربيتين وأحدث انقساماً في العالم العربي الأمر الذي أدرك على نحو مؤلم وحتى تراجيدي من وجهة نظر المواجهة الطويلة مع إسرائيل. وتوالى على بغداد ممثلون رفيعو المستوى من بلدان شمال افريقيا ومن الأردن وكذلك قادة منظمة التحرير الفلسطينية.

ومرحلة «مساعي الوساطة العربية» يمكن تلخيصها في السعي إلى العثور على حل «ضمن الأطر العربية». والسبيل كان من الممكن أن يتمثل في النداء إلى «الربط» بين انسحاب القوات العراقية من الكويت واتخاذ خطوات نحو حل سياسي للمسألة الفلسطينية. وهذه الفكرة قد ترددت وبأقوى الصيغ تشدداً في خطاب صدام حسين في ١٢ آب (أغسطس) وهنا أيضاً لعبت طباعه النفسية دورها. فلقد صرح بالاستعداد لمناقشة كافة القضايا فوراً ودفعة واحدة ـ أي القضية «الكويتية» وانسحاب القوات الاسرائيلية من سائر الأراضي المحتلة وانسحاب القوات السورية من لبنان.

وهذا الاقتراح رمى إلى إحداث تأثير سياسي دعائي داخلي، فلقد ازداد فعلاً في العالم العربي الاعجاب بالعراق الذي اعتبر أنه «المناضل الحقيقي الوحيد في سبيل حل المسألة الفلسطينية». ويجب القول بصراحة أن الجماهير العربية كان من الممكن أن ترى في احتلال الكويت ثمناً يستحق دفعه لقاء حل المسألة الفلسطينية.

بيد أن فرص قبول «صيغة» صدام حسين في شكلها الأصلي لم تكن موجودة عملياً. فالموافقة على هذا الاقتراح تعني تقديم مكافأة للمعتدي وتشجيع العدوان في خاتمة المطاف. ومع أن العالم قد تراجع عن «الحرب الباردة» فإن الحرب «الحامية» لا تزال حيَّة في الذاكرة، الحرب العالمية الثانية التي

فتح الطريق إليها «إقرار سكينة» المعتدي في ميونيخ.

إن القسم الأعظم في المجتمع الدولي قد قابل بالرفض اقتراحات صدام حسين التي أعلنها في ١٢ آب (أغسطس).

وبقي السؤال المزدوج بلا رد: ما المانع عموماً من محاولة استخدام اهتمام العرب الشديد بحل المسألة الفلسطينية في إجبار العراق على الانسحاب من الكويت؟ وما الذي كان يمنع من استخدام التسوية السياسية للأزمة التي نشبت بسبب الكويت كدفعة نحو حل المسألة الأخرى البالغة الأهمية بالنسبة لأمن المنطقة أي النزاع العربي - الاسرائيلي؟

لقد تناول ميخائيل غورباتشوف هذا الموضوع أكثر من مرة في أحاديثه مع مستشاريه في آب (أغسطس) أثناء صياغة خطة نشاطات الاتحاد السوفياتي السياسية من أجل تسوية سياسية للأزمة الكويتية. حينئذ ظهرت لأول مرة فكرة إرسال ممثل شخصي لرئيس الاتحاد السوفياتي إلى بغداد للتحدث مع صدام حسين. وهذه الفكرة لم تنفذ فوراً إذ جرى عملياً استخدام قناة أخرى، فقد استقبلت موسكو برجاء من صدام حسين وزير خارجية العراق طارق عزيز. ولكن أسلوب التخاطب مع العراب هذا قد أظهر نواقصه فوراً. فلم يكن باستطاعة طارق عزيز، مثله مثل أي شخص من بطانة صدام حسين، اتخاذ أي قرار بنفسه. ولم يكن غير «مفسر» للموقف العراقي، حتى أن تفسيره كان في

أطر حددت بدقة وكان في الحقيقة كما «ساعي البريد» لنقل الرسائل.

لقاء في هلسنكي

انعقدت في هلسنكي في التاسع من ايلول (سبتمبر) ١٩٩٠ القمة السوفياتية الأميركية التي كان جورج بوش رئيس الولايات المتحدة صاحب فكرتها.

في تلك الآونة ـ ويجب القول بكل تحديد ـ ساد في موسكو رأي بأن المسألة لن تصل إلى حد الحرب وأن استخدام ترسانة الوسائل السياسية والاقتصادية واستعراض القوة سيعود بالنتائج المرجوة. وموسكو كانت تدرك كذلك مسألة أخرى. فلقد بدأ بعد انتهاء «الحرب الباردة» إرساء أساس نظام قانوني عالمي عادل يحرم الإملاء العسكري والعدوان والتدخل في شؤون الدول الأخرى.

وبديهي ان الحديث يجب الّا يدور الآن عن النزعة التي تشق طريقها بصعوبة عبر مجاهل الموانع والكتل التي خلفتها حقبة المجابهة القاسية وطغيان الايديولوجية على العلاقات بين الدول وتصدير «الثورة» والثورة المضادة. بيد أن التفكير السياسي الجديد الذي طرحه الاتحاد السوفياتي بعد نيسان (أبريل) ١٩٨٥ وما تلا ذلك من التطور للأحداث على

الصعيد الدولي قد عززا الثقة في أن فكرة النظام العالمي العادل هدف واقعي وممكن الانجاز.

ولقد وصل الرئيس ميخائيل غورباتشوف إلى هلسنكي بهذه الأفكار «الاستراتيجية». وفي حديث مع جورج بوش استمر حتى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل ركز الاهتمام مجدداً على مسألة ما إذا كان من الضروري الآن تنشيط الجهود في حل المسألة الفلسطينية بغية إجبار العراق بالوسائل السياسية على الانسحاب غير المشروط، وأقول بكل تحديد أن هذا الانسحاب يفتح طرق البحث النشيط عن حل للنزاع العربي الاسرائيلي. وهكذا فإن الحديث لم يجر عن قبول جملة مقترحات صدام حسين التي طرحها في ١٢ آب (أغسطس) والتي لا يمكن قبولها. فلو كانت الولايات المتحدة قد وافقت على طرحنا للمسألة لتحمل صدام حسين المسؤولية الجسيمة عن إحباط المسألة الفلسطينية برفضه لسحب القوات من الكويت.

ولقد تحدث ميخائيل غورباتشوف عن هذه المسألة في حديثه مع جورج بوش. كما أنها انعكست في البيان السوفياتي الأميركي حيث نص على ضرورة العمل من أجل تسوية النزاعات في المنطقة. وربما كان التحديد غير كاف بهذا الصدد، فالولايات المتحدة لم تذهب أبعد من العبارات المبهمة، ومع ذلك قدمت هذه العبارات ـ كما أعتقد ـ إمكانات كبيرة للنشاط السياسي.

وجرى التركيز في حديث ميخائيل غورباتشوف مع جورج بوش على تجنب الصدام العسكري في منطقة الخليج. ولكن كان من غير الممكن استبعاد هذا الاحتمال، تماماً. ففي خاتمة المطاف كان مثل هذا الاحتمال بل كانت الأمور كلها كما رأى البعض مرتهنة بموقف صدام حسين. ولكن كان لدينا منذ بداية النزاع تصورنا «للثمن» المحتمل في حال اندلاع العمليات العسكرية.

وكان برفقة رئيس الاتحاد السوفياتي في هلسنكي مستشاره أخروميف مارشال الاتحاد السوفياتي. وأخروميف بوصفه أحد أبرز الخبراء العسكريين قد قال للاميركيين المرافقين للرئيس جورج بوش الأتي: الحل العسكري سيؤدي في المنطقة إلى دمار كبير وضحايا بشرية كثيرة، والحرب لا يمكن أن تنتهي بعد ضربة شاملة من الجو بتدمير مراكز الادارة العراقية تماما. أما اصطدام قوات الجانبين البرية فستسفر حتماً عن خسائر.

وفي مشاطرتنا لانطباعاته عن الحديث مع جورج بوش أكد الرئيس غورباتشوف أن أحد أهم استنتاجات اللقاء هو ميل رئيس الولايات المتحدة إلى حل أزمة الكويت بالسبل السياسية. ولدعم موقف جورج بوش هذا قال ميخائيل غورباتشوف له إن نقل القوات إلى منطقة الخليج والسياسة النشيطة في مجلس الأمن الدولي قد حلا عدداً كبيراً من المسائل الاستراتيجية: عدم امتداد العمليات العسكرية العراقية إلى بلدان أخرى في شبه الجزيرة العربية والحؤول دون أزمة نفطية تهدد الاقتصاد

العالمي بعد أن توقف العراق والكويت بحكم الظروف عن تصدير النفط وحصول الخط المناهض للعدوان على أوسع تأييد عالمي وعلى المستويات الرسمية أيضاً. ومع كل هذا يجب اتخاذ المزيد من الجهود السياسية.

وثمة استنتاج آخر جرى استخلاصه من محادثات هلسنكي. فقد عولت الولايات المتحدة على أن يعطي الالتزام الصارم بقرارات مجلس الأمن الدولي الخاصة بالعقوبات الاقتصادية على العراق نتائجه بسرعة ويجبر صدام حسين على الخروج من الكويت. وأكد الاتحاد السوفياتي التزامه بمراعاة هذه القرارات.

وبرزت أثناء المفاوضات مسألة مدة وجود القوات الأميركية في منطقة الخليج. ولقد جرى التطرق مجددا إلى هذه المسألة في المؤتمر الصحفي المشترك حيث أكد جورج بوش الطابع المؤقت لوجود القوات في هذه المنطقة.

أقيمت مأدبة غداء بعد المفاوضات التي شارك فيها أعضاء الوفدين والمحادثات التي أجراها رئيسا الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة على انفراد. وكان مكاني حول المائدة بين عقيلة الرئيس بوش والجنرال سكوكروفت مساعده لشؤون الأمن القومي. والجنرال الذي يعلم جيداً بالطبع أنني متخصص منذ سنوات عديدة في شؤون الشرق الأوسط وعلى معرفة شخصية بزعماء عدد كبير من الدول العربية قد سألني متى كانت المرة

الأخيرة التي التقيت فيها صدام حسين؟ وبدا لي أن الجنرال يريد معرفة ما إذا كنت قد زرت بغداد بعد نشوب الأزمة. وأجبته «لا لم أزرها في الفترة الأخيرة».

نبذة تاريخية

إن معرفتي القديمة جداً بصدام حسين لم تكن سراً. وحينما كنت مراسلاً لجريدة «برافدا» في الشرق الأوسط في الستينات كتبت عن جولاتي في شمال العراق وعن لقاءاتي وأحاديثي مع الملا مصطفى البرزاني زعيم الثوار الأكراد الشهير. وتاريخ علاقاته مع بلدنا تاريخ طويل. فبعد الحرب العالمية الثانية وسقوط الجمهورية الكردية في أراضي إيران هاجر الملا إلى الاتحاد السوفياتي وعاش فيه ١٢ عاما، ورحل إلى العراق بعد ثورة ١٩٥٨ التي أطاحت بالملك وبنوري السعيد صنيعة الانكليز. وشغل لفترة ما منصب نائب رئيس الوزراء في عهد عبد الكريم قاسم وبعد ذلك قامت ظروف حملته على الرحيل إلى شمال العراق حيث أثار قبائل الأكراد ضد بغداد.

كان السلام واستقرار الوضع في العراق من مصلحة الاتحاد السوفياتي، حينئذ بدأنا إقامة شتى العلاقات مع بغداد وظلت علاقاتنا مع الأكراد طيبة.

التقيت صدام حسين أول مرة العام ١٩٦٩، آنذاك لم

يكن رئيساً للعراق وإنما كان واحداً من أقوى أعضاء القيادة العراقية نفوذاً.

وما كان بالغ الأهمية بالنسبة لي كمشارك وقتها في الجهود الرامية إلى جمع الطرفين حول مائدة المفاوضات هو أن صدام حسين كان «المسؤول» عن مسألة الأكراد ولعب دوراً أساسياً من جانب بغداد في عملية التسوية مع الأكراد. ولقد تسنى لي أيضاً آنذاك التعرف جيداً بما فيه الكفاية إلى طارق عزيز الذي كان يشغل منصب رئيس تحرير جريدة «الثورة».

كان الوضع في تلك الآونة غير مستقر. فلقد وصل إلى الحكم لتوه جناح البعث الذي يضم صدام حسين وطارق عزيز. وكان في مكتب كل منهما في الركن رشاش جاهز للاستعمال. في تلك المرحلة بدت بجلاء خصال صدام حسين التي ظلت بل واشتدت فيما بعد حين أصبح رئيساً للعراق وهي الصلابة التي بلغت في أحيان كثيرة حد القسوة وقوة الارادة الأقرب إلى الاستبداد والتعنت والاستعداد للمجازفة والتهور وبلوغ الهدف مهما كان الثمن وامتزج كل ذلك بغموض خطر.

وسأسرد هنا حادثين مختلفين. في أوائل العام ١٩٧٠ حين أخذ ميكانيزم المفاوضات مع الأكراد في العمل وحانت خطة توقيع اتفاقية الصلح قال صدام حسين فجأة: لا أستطيع توقيعها، فهل هناك ما يضمن عدم قيام الأكراد ببدء الحرب

مجدداً؟ أجبته، لا توجد ضمانات بهذا. ولكن الأكراد إذا انتهكوا الاتفاقية بينما تلتزم بغداد بشروطها فإنهم حينئذ سيدخلون الحرب بدون أي تأييد من الاتحاد السوفياتي والكثير من القوى الدولية الأخرى. فهل هذا عديم القيمة؟

ولقد وافق صدام على هذه الحجج بعد أن فكر فيها. وجرى توقيع الاتفاقية في ١١ آذار (مارس) ولكن التوتر ظل باقياً واشتد تدريجياً حتى بلغ حد الصراع الضاري الذي أدى في خاتمة المطاف إلى اندلاع الحرب التي بدأها الأكراد العام ١٩٧٤.

وننتقل إلى الحادث الثاني. حين تفاقم الوضع مجدداً في شمال العراق تسنى لي وبصفتي نائباً لمدير معهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية التابع لاكاديمية العلوم السوفياتية الالتقاء مرة أخرى مع الملا البرزاني. وحدثني الملا عن المحاولة التي دبرت لاغتياله. فلقد حل عدد من الشيوخ ضيوفاً عليه دس أحدهم عبوة ناسفة قام سائق السيارة الذي كان خارج المنزل بتفجيرها باللاسلكي عن بعد. ولم يصب الملا لسبب واحد إذ حال دون ذاك بالصدفة شخص انحنى مقدماً الشاي له في لحظة الانفجار بالضبط. وأكد الملا عن يقين أن هذا العمل من فعل يدي صدام.

التقيت بصدام حسين مراراً في السبعينات والثمانينات في زياراته لموسكو وفي مأمورياتي في بغداد. وبدا لي أنه قد قامت

بيننا علاقات أتاحت لي التحدث معه بصراحة بدون تكلف دبلوماسي ومع اعتبار طباعه النفسية. (أود التنويه بأنه في التعامل مع الشخصيات السياسية العربية والشرقية عموماً لا بد من أخذ نفسياتهم في الاعتبار وخاصة سماتهم تلك مثل الحساسية الشديدة إزاء كل ما يسمى الشرف والكرامة).

وبديهي أن علاقاتي مع صدام حسين جرى أخذها في الاعتبار حينما كلفني الرئيس ميخائيل غورباتشوف مع س. بيلئوسوف نائب رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي بالسفر إلى بغداد.

في الطريق الى العراق

جرى تكليفنا بمسألتين: الأولى، الاتفاق على السماح للخبراء السوفيات الذين يرغبون في العودة إلى الوطن بمغادرة العراق بدون أية عراقيل. والثانية، أن نظهر لصدام حسين خلال المحادثات معه أنه لا جدوى أبداً من امتناعه عن تنفيذ مطالب مجلس الأمن الدولي وإن حاول في آن واحد استكشاف الامكانات التي تضمن انسحاب القوات العراقية من الكويت بالوسائل السلمية.

ولقد سافر معنا بالطائرة إلى بغداد ر. ماركاريان مساعد عضو مجلس الرئيس والمستشار ف. ارتيموف (رافقني هذان

الشخصان في كل زياراتي التالية لبغداد) وكـذلك ف. كـولوتـوشا وس. كيـربيتشينكـو المسؤولان في وزارة الخـارجيـة السـوفيـاتيـة وف. موردفينوف نائب وزير العلاقات الاقتصادية الخارجية.

هبـوط طائـرتنـا الأول كـان في مـطار عمـان ولم يكن هـذا الهبوط اضطراريـاً لأسباب فنيـة. فاليـوم الذي سبق الـوصول إلى بغــداد كـان مخصصــاً لتبـادل الأراء مـع الملك حسين والقـادة الأردنيين الأخـرين وكذلـك مع قـادة منظمـة التحريـر الفلسطينيـة الـذين علموا مسبقـاً بأننـا سنزور عمـان فـوصلوا إليهـا من تـونس برئاسة ياسر عرفات.

وحـظي مـوقف صـدام حسين بتـأييـد من ملك الأردن ومن الفلسـطينيين خاصـة الـذين اعتبـروه حليفـاً لهم. فلقـد كـان من المفيـد محاولـة استخدام من معـه في المقام الأول من أجـل دفع العـراق إلى طريق التسـوية السيـاسية. ووفقـاً للفكـرة كـان ذلـك قادراً على جعل الحديث مع صدام حسين سهلاً.

ويجب القول أن قادة الأردن كانوا يـدركون الخـطر الجسيم لتـطور الأحداث ولكنهم شعـروا بأنهم عـاجزون عن الخـروج من التيار الذي يندفع بهم بشدة نحو الدوامة البالغة الخـطورة. وعلى أي حـال كان واضحـاً تمامـاً أن الملك حسين وطبقاً لمـا يتسم به من قـدرة على المناورة كـان على استعداد لبـذل كـل مـا يتـوقف عليـه كي يساعـد في جعل الـرئيس العـراقي ولـو على أدنى قـدر من المـرونة السيـاسية. (الأردن بلد يشكـل الفلسـطينيـون قسمـاً

كبيراً من سكانه وهو مجاور لاسرائيل وشارك في حربين معها خلال الـ ٤٠ عاماً الأخيرة فضلاً عن أن اقتصاد الأردن مرتبط على نحو وثيق بالاقتصاد العراقي).

لقد تقبل الملك حسين على نحو إيجابي لا يقبل التأويل المساعي السوفياتية التي بدأت ووعد بدعم خطواتنا بجهود مماثلة سواء من جانبه شخصياً أو بالجهود المشتركة التي يبذلها مع البلدان العربية الأخرى التي كان دائم الاتصال بها.

واللقاء مع الفلسطينيين كان مغايراً بعض الشيء من حيث الطابع. وكالعادة بدأ بالعبارات البلاغية المفهومة نفسانياً عموماً، فالفلسطينيون لا يريدون وأشد من أي طرف آخر أن يسود في الشرق الأوسط منطق إزاء الكويت وآخر إزاء مصيرهم.

بيد أن الحديث سرعان ما اتخذ منحى آخر. فلقد أظهر ليس فقط ياسر عرفات بل وعدد كبير من القادة الفلسطينيين الآخرين المتعقلين وعلى قدر كاف من الحكمة، منهم أبو أياد (الذي قتل على يد قاتل أجير قبل اندلاع الحرب في الخليج بأيام) وأبو مازن وياسر عبد ربه، كلهم أظهروا قلقاً واضحاً من الحل العسكري لأزمة الكويت.

وانتهى الحديث بأمر أصدره ياسر عرفات بتجهيز طائرته للاقلاع كي يصل إلى بغداد قبلنا ليبذل كما قال لنا «كل ما في وسعه حتى يكون مثمراً» لقاؤنا مع صدام حسين. ولا تساورني

أية شكوك في أن الذي جرى فعلاً هو ما قيل. ولقد حاول عرفات وبحكم إمكاناته المحدودة ـ وأقولها بصراحة ـ في هذه الحالة التأثير على صدام حسين كي يتخذ موقفاً بناء.

في بغداد

أقلعنا في الرابع من تشرين الأول (أوكتوبر) ١٩٩٠ من عمان إلى بغداد حيث استقبلنا طارق عزيز في المطار. وسألني ان كنت أود الحديث معه أولاً أو مع صدام حسين مباشرة. أجبته بأنني أريد تبادل الأراء معه أولاً.

وهنا لن أسرد الحديث كله الذي استمر عدة ساعات وربما كان أصعب حديث جرى بيني وبين طارق عزيز وحتى مع أي ممثل عراقي عموماً فمحدثي قد ركز تماماً وكما جرى قبل ذلك بشهر في موسكو على إظهار «انتماء الكويت تاريخياً وسياسياً واقتصادياً للعراق».

وذكر التواريخ والأرقام والأحداث والناس. وقدم التاريخ من جانب واحد لاظهار حقانية ومشروعية دخول القوات العراقية الكويت.

وساد حديث طارق عزيز نبرة استياء حادة وعدم الرضاء إزاء الموقف السوفياتي وسياسة الاتحاد السوفياتي الذي «كان من الواجب عليه أن يتخذ سلوكاً آخر نظراً لمعاهدته مع العراق»

ولكن حين طرحنا عليه السؤال التالي: لماذا لم يقم طرف المعاهدة الثاني حتى بإخطار موسكو حين فكر ثم نفذ غزو الكويت؟ تهرب طارق عزيز من الاجابة.

وتذكرت ما جرى في أيلول (سبتمبر) ١٩٨٠ حين وصل طارق عزيز إلى موسكو في اليوم الثالث بعد اندلاع الحرب العراقية ـ الايرانية وكنت واحداً من الذين التقى بهم. حينئذ أكد أن العراق حتى وإن كان البادىء بإطلاق النار فإن ذلك على حد قوله إجراء وقائي ووسيلة «للدفاع عن النفس» في ظروف اختتمت إيران فيها تحضيراتها العسكرية. وقتها سألت طارق عزيز «لماذا لم تقم القيادة العراقية التي تربطها معاهدة بالاتحاد السوفياتي بالتشاور معنا مسبقاً؟»

في اليوم الأول وفي أول لقاء مع طارق عزيز تحدثنا أنا وايغور بيلئوسوف معه بنبرة حازمة للغاية عن ضرورة تقديم الامكانية لكل من يرغب من المواطنين السوفيات لمغادرة العراق والعودة إلى الوطن. في تلك الآونة كان عدد الخبراء السوفيات العاملين في أرجاء العراق كافة حوالي ٥ آلاف خبير. وكانت أسر البعض لا تزال موجودة معهم هنا مع أن القسم الأكبر من أفراد الأسر قد جرى نقله إلى الاتحاد السوفياتي.

كما كان موجوداً بالعراق حوالي ١٥٠ خبيراً عسكرياً سوفياتياً سافروا إلى هذا البلد قبل نشوب أزمة الكويت للقيام بتصليح المعدات العسكرية التي باعها بلدنا للعراق. ودارت في

الغرب تشدقات كثيرة حول مسألة وجود خبرائنا العسكريين في العراق وصفهم البعض بأنهم «مستشارون عسكريون» و «بمخططين للعمليات العسكرية». كما ثارت هذه المسألة في هلسنكي في لقاء رئيسي الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة. ولكن جورج بوش وزملاءه اقتنعوا بالتفسيرات التي أكدت بجلاء أن الخبراء العسكريين السوفيات كانوا قد وصلوا إلى هذا البلد قبل أن يصوت الاتحاد السوفياتي على قرار مجلس الأمن الدولي الخاص بالعقوبات ضد العراق بفترة طويلة وقبل أن يتخذ قرار بالحظر التام على توريد المعدات العسكرية وقطع الغيار للعراق. ،كما أن وجود الخبراء العسكريين في العراق محدد بفترات العقود. وكان وضع الخبراء المنتمين إلى بلدان أخرى مماثلاً.

وحتى لحظة وصولنا إلى بغداد كان قد تراكم عدد كبير من الخطوات الدبلوماسية التي لم تسفر عن نتائج من أجل ضمان الرحيل من العراق ليس فقط بالنسبة للخبراء العسكريين الذين انتهت عقودهم بل وبالنسبة لجميع المواطنين السوفيات الأخرين الذين عملوا هنا في المشروعات المختلفة التي جرى تشييدها بمساعدتنا التقنية. ومع أن الجانب العراقي لم يرفض ذلك إلا أنه لم يحل المسألة. وبلغ الأمر حد إلغاء عدد من رحلات طائرات شركة ايروفلوت إلى بغداد لأنها كانت تعود إلى موسكو بلا ركاب.

حتى تلك الآونة كان العراق قد أقدم على تحدي الجميع وكلاً على حدة إذ احتجز مجموعة كبيرة من الأجانب ـ من الأميركيين والأوروبيين واليابانيين، ونقلهم باستعراض متعمد إلى المنشآت الاستراتيجية التي يحتمل تعرضها للضربات إذا اندلعت الحرب. وكلفنا الرئيس ميخائيل غورباتشوف بحتمية طرح مسألة هذا «الدرع البشري».

وقال رئيس الاتحاد السوفياتي لا بد من استخدام كافة الامكانيات من أجل إزاحة بغداد عن موقفها غير الانساني الذي يتعارض مع أي تفسير عقلاني وان أي تقدم في هذا الاتجاه سييسر بلا شك البحث عن تسوية سياسية.

حديث صريح
مع صدام حسين

دار الحديث مع صدام حسين في الخامس من تشرين الأول (اكتوبر) وشارك فيه من جانبنا ف. بوسوفاليوك سفير الاتحاد السوفياتي في العراق ومن الجانب العراقي طارق عزيز وطه ياسين رمضان النائب الأول لرئيس وزراء العراق. وجرى الحديث في قصر الرئاسة حيث يستقبل صدام حسين الأجانب عادة. وقال أحد العراقيين إننا أول من استقبلهم صدام حسين منذ الثاني من آب (أغسطس) في هذا القصر كما جرى سابقاً.

وصدام حسين الذي استغرق في قراءة رسالة الرئيس غورباتشوف التي سلمت له (ترجم النص إلى اللغة العربية في وزارة الخارجية السوفياتية مسبقاً) لم يظهر انعكاسات مباشرة للعبارات الحازمة بما فيه الكفاية حول ضرورة الانسحاب من الكويت فوراً وإعادة السيادة إلى هذه الدولة وكان الجو متوتراً في بداية اللقاء.

وبعد أن كرر صدام حسين كل ما سمعنا سابقاً من طارق عزيز عن الكويت طرحت أنا وايغور بيلئوسوف على نحو حاد المسألة المتعلقة بخبرائنا. وشعرنا بأنه كان على استعداد لهذه المسألة ولذا رد فوراً: كل من يريد الرحيل في وسعه ذلك ولكن العراق يحدد عدد الراحلين في الشهرين القادمين بألف فرد فقط حتى لا يؤدي ذلك إلى عرقلة العمل وتوقفه.

ـ لا توافق، همس ايغور بيلئوسوف.

وإذ كنت أعلم أن سفارتنا قد استلمت حوالي ١٥٠٠ طلب بالرحيل اقترحت وضع جدول زمني لرحيل ١٥٠٠ فرد خلال شهر. وفي خاتمة المطاف قال صدام حسين ليكن كما تريد.

ولكن العملية سارت بصعوبة، فالذين تحت أمرة الرئيس العراقي ربما قد أرادوا أن يكونوا «أكثر ملكية من الملك» وربما كان ذلك لعبة من نوعها باشتراك صدام حسين شخصياً. فلقد

التقى ايغور بيلئوسوف بوزير النفط العراقي (أغلبية خبرائنا الذين تقدموا بطلبات للرحيل من العراق كانوا يعملون في جنوب العراق في حقول النفط أو في مد خط أنابيب البترول) بيد أن الأخير تظاهر بأنه لا يعلم شيئاً عن الاتفاقات التي جرت واقترح فترات للرحيل وإعداد المغادرين انطلاقاً من «الجدوى الاقتصادية بالنسبة للعراق». وبديهي أن ذلك كان بوسعه تجميد الرحيل مجدداً.

وفيما بعد حين كنا في السفارة رن جرس مزعج من ايغور بيلئوسوف الذي التقى بصدد هذه المسألة مع طارق عزيز. أكد الأخير وكأن الرئيس قد عاد ثانية إلى «الحصة» الأولى، رحيل ألف فرد فقط في غضون شهرين. وتطلب ذلك أن أتحدث هاتفياً مع طارق عزيز الذي قال وربما لأنه شعر بإصرارنا التام أنه «سيتحقق من ذلك في تسجيله لحديث الرئيس». وبعد ١٠ ـ ١٥ دقيقة رد علينا مؤكداً ١٥٠٠ فرد في غضون شهر واحد.

ولنعد إلى الحديث مع صدام حسين. بعد الفقرة «الالزامية» حول انتماء الكويت للعراق انتقل إلى المواضيع الأخرى. وطبقاً لقوله أصبح العراق فور إحراز النصر العسكري على إيران هدفاً «لمؤامرة متعددة الأطراف ومن المحال أن تسمح الولايات المتحدة واسرائيل بوجود العراق الذي قوى عضلاته العسكرية». وشاركت في هذه المؤامرة على حد قول صدام حسين العربية السعودية وعدد من إمارات الخليج.

وطبقاً لما قاله لجأوا إلى استخدام الأليات الاقتصادية. فلقد انتهكت العربية السعودية والكويت والامارات العربية المتحدة حصص تصدير النفط التي حددتها منظمة الأوبك لكل بلد وأدى ذلك إلى انخفاض سعر برميل النفط من ٢١ دولاراً إلى ١١ دولاراً مما «ينذر بانهيار اقتصاد العراق».

ولا أود التطرق إلى جوهر الاتهامات التي وجهها فبعضها يتفق والحقيقة كما أن بعضها مختلق بالطبع ويعتبر وليداً للمخيلة الشكاكة المرضية. ويمكنني القول حسب تقديراتي أنه كان يفكر على هذا النحو فعلاً.

ـ ألا تعتقد أن لديكم قد ظهرت مثلما ظهرت لدى الاسرائيليين عقدة مسادا؟ سألت صدام قاصداً مصير الحصن الذي كان آخر حصن سقط في الحرب اليهودية. فالمدافعون عنه إذ أدركوا أن وضعهم لا مخرج منه فضلوا الموت الزؤام على الاستسلام.

أومأ صدام برأسه علامة على الموافقة.

ـ حينئذ ألن يحدد تصرفاتكم وأساساً منطق المحكوم عليه بالموت؟

وبدا لي أن صدام حسين وافق على هذا في دخيلته وعلى الأقل فلقد رد عليه بالصمت.

وانتقلنا إلى بحث العواقب المحتملة لرفض سحب

القوات العراقية من الكويت والـرد في العالم على أزمـة الكويت. وأردت خصيصـاً التـطرق إلى هـــاتين المســألتين لأنني كنت على اعتقـاد بأن صـدام ربما لا تتـوفر لـديه المعلومـات بأكملهـا. ولا شـك في أنهم قد أطلعـوه في المقام الأول على مـا أثار عـواطف إيجـابيـة، فمثـــلاً عن تـأييـــد العـراق في العـــالم العـربي وعن المـــظاهـرات المنـــاهضـــة للحـــرب التي أجـــريت في الغـــرب و «البـوادر» الأولى للخـلاف بين الحلفـاء في الائتـلاف المضـــاد للعـراق. وأخفوا عنـه الأنباء السيئـة. فذلـك كان من الممكن أن يكلف المبلغ حياته. . .

وسمـع صـدام منـا عن طـابـع تلك الحـرب بـالـذات التي تنتـــظره إن لـم ينسحب من الكـويت. وكمـــا هـو معـــروف تمتـع العـراق أثنـاء العمليـات الحـربيـة مع إيـران بـالسيـادة في الجـو وبتفـوق تقني كبير في العمليـات البريـة. أما في حـال اصطدامـه مع ائتلاف دولي تشكل القوات المسلحة الاميركية نواتـه فإن كـل الأمـور ستكون على النقيض تمـاماً. فـالتفـوق الجـوي للتحـالف واضـح تمامـاً أسوة بتفـوقه العسكـري التقني عمومـاً على العراق وبـديهي كانت بـالغة الأهميـة من هـذا المغـزى التفسيـرات التي قـدمها ايغـور بيلئوسـوف بـوصفـه خبيـراً بـارزاً في مجـال التقنيـة العسكرية.

حدثنا صـدام عن مدى عـزلة العـراق في المجتمع الـدولي بسبب غـزو الكويت. ولقـد شهد بـذلك على الأقـل الـوضـع في

دورة الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة التي دارت جلساتها في تلك الأيام.

رجوت صدام حسين بأن تجري بقية أحاديثنا على انفراد. فسألني صدام ان كنت أعارض وجود طارق عزيز. وكان معنا من جانبنا سيرغي كيربيشينكو العلامة الضليع في اللغة العربية واحد أفضل جيل علماء الاستعراب الشاب. وقام بترجمة الحديث.

ـ إن لم تسحبوا قواتكم من الكويت ـ كانت هذه عبارتي الأولى ـ فستتعرضون حتماً لضربة. وتدركون بالطبع أن الغرض من زيارتي هذه ليس تهويلكم بيد أنه لا يوجد ربما مخرج آخر من الحالة غير جلاء القوات العراقية عن الكويت.

وفي رأيي أن ما قلته قد أثر على صدام حسين تأثيراً مزدوجاً.

وقال إنه في حال الحل العسكري سيستخدم كل ما لديه من وسائل وسينشر حتماً نيران الحرب في البلدان الأخرى وخاصة في إسرائيل.

وقال «لو مثل أمامي الخيار التالي، الركوع على الركبتين والاستسلام أو الحرب فسأختار الحرب».

ومع ذلك قال صدام حسين ما يلي وهنا أود ذكر ما قيل بدقة متناهية: «أنا كإنسان واقعي يمكنني تصور، في ظروف

بعينها، الموافقة على سحب القوات. ولكنني لا أستطيع الاقدام على ذلك إذا لم يربط هذا الانسحاب بحل مشاكل المنطقة الأخرى. ولقد ذكرت هذه الفكرة في الثاني عشر من آب (أغسطس).

وتطرق صدام إلى مسألة سحب القوات من الكويت بأسلوب غير مباشر وكأنه يتحدث عن أمر آخر وقال تذكرون أنني تنازلت في ١٥ آب (أغسطس) عن كافة نتائج حرب الثماني سنوات مع إيران وأعدت الوضع إلى ما كان عليه قبل اندلاع الحرب ولن يغفر الشعب العراقي ذنبي إذا سحبت القوات من الكويت بلا شروط. وسيسألني الناس: «ما العمل إزاء منفذ إلى البحر؟».

ـ إذا كان الشعب العراقي قد قبل دون تحفظات تنازلكم ببساطة عن كافة نتائج الحرب الدموية التي استمرت ثمانية أعوام مع إيران فإنه سيوافق أيضاً على قراراتكم بصدد الكويت، رددت عليه.

وقلت لصدام حسين بصراحة إن ما يسمى «بالدرع البشري» من الرهائن الأجانب المحتفظ بهم عنوة في المنشآت العسكرية وغيرها من المنشآت الاستراتيجية لن يحول دون الضربة الاميركية في حال رفض سحب القوات من الكويت. وأنه بأعماله هذه قد جلب على نفسه غضب العالم بأسره. رد صدام على هذا القول بالصمت ولكنه استغرق في التفكير».

ولقد بدأت في تشرين الاول (اكتوبر) سياسة «التسامح» إزاء بعض جماعات الرهائن. وارتسمت معالم هذه المسألة بدقة أثناء لقائنا في ٢١ تشرين الأول (اكتوبر). وفي تشرين الثاني (نوفمبر) وأوائل كانون الأول (ديسمبر) سمح لكافة الأجانب بمغادرة أراضي العراق والكويت بلا أية عراقيل.

تبادلنا ليلاً في مكتب السفير السوفياتي في العراق الأراء حول البرقية التي كان مقرراً إرسالها إلى موسكو عن نتائج المحادثات في بغداد. أولاً كنا سعداء لأن مسألة ترحيل الخبراء السوفيات قد حلت. وحتى تلك اللحظة كان قد تم على مستوى عملي الاتفاق على الجدول الزمني لشهر قادم ومع الأخذ في الحسبان رحلات إضافية لطائرات ايروفلوت إلى بغداد وكما أظهرت الأحداث راعى العراقيون ذلك الاتفاق مراعاة تامة.

واتفق الجميع في الرأي بأنه قد لاحت بوارق أمل في حل سياسي ما. وصباحاً توجهت إلى المطار مع طارق عزيز بسيارته. وحينئذ قال لي إن صدام حسين يأمل في طرح اقتراحات محددة. ونحن في انتظار المزيد من الاقتراحات.

ـ طارق. وكررت هذا القول مرة أخرى أمام سفيرنا في المطار؟ سألته.

ـ ولماذا؟

ـ تحسباً للاحتمالات أنا سأستقل الطائرة وما قلته هذا هام ومن الأفضل تكراره في برقية بالشفرة إلى موسكو. فهذا السبيل أضمن.

وافق طارق على ذلك وحقق رجائي.

القسم الثاني

قبل المرحلة التالية

عدت إلى موسكو في مساء يوم السبت ٦ تشرين الأول (اكتوبر). وفي يوم الأحد أبلغت غورباتشوف بتفاصيل لقاءاتي في بغداد. وكان الرئيس قد أطلع قبل ذلك على كل المعلومات الواردة منا من بغداد. وقال انه بشكل عام يشاركنا تقديراتنا للوضع الناشىء وطلب إعداد مقترحات بشأن مواصلة المهمة. ووجد غورباتشوف ضرورياً أن نتشاور أولاً بشأن هذه المقترحات مع الرئيس الاميركي جورج بوش وكذلك ـ ومن كل بد ـ مع الرئيس الفرنسي ميتران والرئيس المصري حسني مبارك والرئيس السوري حافظ الأسد والعاهل السعودي الملك فهد على أن نلتقي بعد ذلك صدام حسين مرة أخرى. وحظيت هذه الفكرة حين طرحت على دائرة أوسع من المسؤولين بتأييد ريجكوف وكروتشكوف. وأسند إلي وإلى شيفاردنادزه مسألة صياغة المقترحات.

فما هو مضمون مقترحاتنا أو فلسفة التسوية إذا صح التعبير؟

بعد أن وافق عليها الرئيس غورباتشوف أحطنا علماً بها رؤساء الدول الذين التقيتهم بعد أيام. وكان القصد سحب القوات العراقية من الكويت ـ مهما يكن هذا صعباً ـ وفي الوقت نفسه تفادي الحل العسكري الذي ينذر بعواقب وخيمة. وواضح إذاً أن «مكافأة» المعتدي كانت مرفوضة في أي حال من الأحوال. ولكن «عدم المكافأة» يمكن أن يضمن بطريقتين: دحر المعتدي عسكرياً، وهو ما يعني حتماً إنزال ضربة بالشعب، أو إرغام المعتدي على الانسحاب من الكويت بالوسائل السياسية دون اللجوء إلى القوة.

اختار الاتحاد السوفياتي بحزم خط استخدام كل الوسائل السياسية المتاحة.

والموقف المقترح مفاده أن يضمن سحب القوات العراقية من الكويت بالوسائل السياسية مع إخبار صدام حسين بأن لا بد أن تعقب ذلك أفعال محددة تصب في اتجاه حل المشاكل المعلقة وتحقيق الاستقرار في منطقة الشرق الأوسط كلها. ولا بد من الاشارة إلى أنه لم يقصد بذلك أي «ربط» بين هذا وذاك.

واقتضى الأمر تفكيراً جاداً في إقامة نظام للأمن الاستراتيجي في المنطقة بسبب مخاوف جيران العراق (وهي مخاوف مبررة لأن سلوك العراق العدواني اعتمد في السنوات الأخيرة على قوة عسكرية متزايدة بسرعة) من جانب ومخاوف صدام حسين نفسه من جانب آخر

الذي كان على ثقة بأنه يبقى معرضاً للتهديد حتى إذا سحب قواته من الكويت.

وواضح أن تسوية النزاع العربي ـ الاسرائيلي يجب أن تكون أحد أهم عناصر نظام الأمن هذا. وحاول صدام حسين أن يجعل من ذلك ورقة رابحة في يده رابطاً سحب قواته من الكويت بحل هذه المشكلة. وكان هذا الربط مرفوضاً رفضاً قاطعاً. ولكن من المستحيل دون تسوية شاملة في الشرق الأوسط تثبيت حدود دول المنطقة، ما بالكم بضمان حرمتها. ومن المستحيل في هذه الحالة توفير حتى أبسط الظروف لتجد هذه الدول الامن. وكان لرؤية النزاع العربي ـ الاسرائيلي هذه في اطار نظام الأمن المزمع إقامته في المنطقة، إيجابياتها إذ زادت من اهتمام كل الأطراف ـ وبضمنها الرأي العام الاسرائيلي، بحل المشكلة.

قبل أن أغادر موسكو إلى باريس وصلت برقية من سفيرنا في روما اداميشين جاء فيها أن رئيس الوزراء الايطالي اندريوتي رئيس المجموعة الأوروبية في ذلك الحين، يريد أن يلتقي معي في روما. كما أن عدداً من السفراء المعتمدين لدى موسكو طلبوا مني أن استقبلهم.

ووجدت مساعي الاتحاد السوفياتي انعكاساً واسعاً لها في الصحافة الغربية. وبشكل عام لقيت هذه المساعي التأييد وان لوحظ

أحياناً شيء من العصبية مبعثها ـ على ما يبدو ـ الخوف من أن يتلقى صدام حسين «إشارة كاذبة» توحي له بأن التحالف المعادي له يفتقر إلى «الصلابة» أو أن أعضاء التحالف «على خلاف» فيما بينهم. وزعم بعض المعلقين أن الاتحاد السوفياتي قد «يلعب لعبة ما» من وراء ظهر الولايات المتحدة. وأقول أن هذه المزاعم لا أساس لها.

وردود أفعال صحافتنا أيضاً على المساعي المبذولة كانت متباينة. وجاء هذا التباين إلى حد ما انعكاساً لأراء المجتمع السوفياتي حول الوضع في منطقة الأزمة. وفي رأيي أن بعض ردود الأفعال لم يخل من بواعث ذاتية. وكانت هناك تعليقات كالخبر الذي نقلته وكالة «نوفوستي» والذي سوف أتوقف عنده، وهي تعليقات أقل ما يقال فيها أنها من قبيل الركض الجامح وراء الاثارة. فقد نقلت «نوفوستي» إلى كل أنحاء العالم عن «مرافقين» لمبعوث الرئيس السوفياتي قولهم أنه اقترح على صدام حسين أن يحتفظ بجزيرتين كويتيتين وحقل الرميلة للنفط ويبقي قواته هناك. ولا داعي لذكر رد فعل الكويت على هذا الخبر. كما أن رد فعل بغداد كان غاية في السلبية. وواضح أن هذا لم يساعد على إنجاح التفاوض مع القيادة العراقية. واضطررت لاستدعاء سفير العراق لأطلب منه أن يخبر بغداد بأن لا علاقة لي ولـ«المحيطين» بي بهذا الخبر غير الصادق وأننا نستنكره. وكان لتصريحي هذا صدى طيب وضع حداً لكل

الأقاويل في بغداد حول خبر «نوفوستي».

وكان هناك نوع آخر من المقالات جعلتنا في حالة أصعب وهي المقالات التي تحدثت عن «فشل» مهمة وفدنا إلى بغداد وحتى تضمنت اختلاقات حول عودة خبرائنا. ونشرت صحيفة «ايزفستيا» تعليقاً كهذا. وقال لي رئيس تحريرها إن هذا التعليق فاته. مهما يكن فإن «ايزفستيا» وهي صحيفة رسمية علقت على نتائج زيارة مبعوث الرئيس السوفياتي إلى بغداد دون أن تحاول استعلام المبعوث نفسه عن نتائج زيارته وانطباعاته. وبدلاً من ذلك نقلت «ايزفستيا» ما تنشره وسائل الاعلام الغربية بهدف واحد هو ـ إذا سمينا الأشياء بأسمائها ـ إظهار أن لا داعي حتى لمحاولة تسوية النزاع بالوسائل السياسية.

والتعليق الذي ذكرته استهدفني أنا شخصياً. ولكنه جاء في الوقت نفسه انعكاساً لأحد المواقف في تغطية أزمة الخليج العربي. وظهر على صفحات «ايزفستيا» بعد أن اندلعت الحرب مقال آخر يقول إنه ما دام الاتحاد السوفياتي لا يشارك في «التحالف المظفر» ضد العراق فإنه يحرم نفسه من الحق في أن يكون طرفاً في مسيرة التسوية السياسية. ولا بد من أن أقول في هذا الصدد إن رئيس الاتحاد السوفياتي لم يدرج قط مسألة إرسال قواتنا إلى منطقة الخليج العربي في جدول الأعمال فمابالكم ببحثها. وبعد عدة أيام جاء في مقال آخر نشرته «ايزفستيا» أنه ليس في جعبة الرئيس بوش الذي لن

يتسنى له الاستمرار في الحكم ولو نصف سنة إذا لم يحرز نصراً عسكرياً على العراق، إلا أن يلجأ إلى السلاح النيوتروني. وغريب أن بعض صحفنا تكتب بكل بساطة وحتى بكل لا مبالاة عن أشياء تتعلق بها حياة الألوف فضلاً عن العبث بمصالح بلدنا السياسية الخارجية.

وإذ أشرت إلى فحوى بعض المقالات لم أقصد بالطبع كل أسرة تحرير صحيفة «ايزفستيا» التي احترمها احتراماً عميقاً. وبالمناسبة ظهرت وتظهر على صفحاتها مقالات جيدة عن الموضوع المذكور بقلم ستانيسلاف كوندراشوف وقسطنطين غيفاندوف وفيتالي كوبيش وغيرهم. وتتميز هذه المقالات بتحليل عميق وتقدير مسؤول..

في اوروبا الغربية

في ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) غادرنا موسكو إلى روما حيث توجهنا من المطار فوراً لمقابلة السيد اندريوتي الذي أبدى اهتمامه بتفاصيل المحادثات مع صدام حسين وأيد فكرة التسوية التي عرضناها عليه. وأدركنا أن ايطاليا قلقة جداً من احتمال الحل العسكري وخاصة أن من شأن ذلك أن يوتر الوضع في افريقيا الشمالية أيضاً ومنطقة البحر المتوسط كلها وهي المنطقة التي فيها

لايطاليا مصالحها الخاصة.

والشيء الأهم أن رئيس الوزراء الايطالي رأى أن هناك «ظروفاً موضوعية» قد تدفع الولايات المتحدة وغيرها إلى بدء العمل العسكري قبل أن تستنفد الامكانيات السياسية. ومن هذه الظروف ـ كما قال اندريوتي ـ الظروف الجوية (تهب في شهر آذار (مارس) في صحراء الجزيرة العربية رياح رملية شديدة تعقد تنفيذ العمليات الحربية) وتوافد أعداد كبيرة من مسلمي مختلف البلدان (حوالي مليون ونصف مليون شخص كل سنة) على مكة والمدينة لتأدية فريضة الحج بدءاً بشهر حزيران (يونيو). وقال اندريوتي إن الحرب يمكن أن تصبح أمراً واقعاً في أقرب وقت. وأضاف:

ـ إذا وافقت واشنطن على اقتراحاتكم بشأن التسوية السياسية فلا شك أننا نؤيد ذلك.

كان واضحاً أن اندريوتي يعتبر نشاط الاتحاد السوفياتي أحد البدائل الواقعية القليلة عن الانزلاق نحو هاوية كان يتصور عمقها جيداً.

وقال سفيرنا في روما الذي تربطني به أواصر صداقة قديمة أن وزير الخارجية دي ميكيليس يريد أن يأتي إلى السفارة في ساعة متأخرة من مساء نفس اليوم كي يناقش الوضع في الخليج العربي مع

«دائرة ضيقة جداً» من الأشخاص. وركز دي ميكيليس على مرحلة ما بعد الأزمة مؤكداً ضرورة إقامة نظام للأمن الاستراتيجي في المنطقة «على غرار ما يراعي اتفاق هلسنكي».

منذ وقت بعيد وايطاليا تطرح هذه الفكرة التي تستحق الاهتمام في جانب كبير منها. وبطبيعة الحال لا يمكن أن يكون القصد مجرد تطبيق «قالب هلسنكي» على الشرق الأوسط للاختلاف الواضح بين المنطقتين وهو ما وافق عليه دي ميكيليس أيضاً. والاختلاف الأساسي أن اتفاق هلسنكي ثبت حدود دول أوروبا كما هي بعد الحرب العالمية الثانية وضمن حرمتها في حين لا يمكن إدراج مسألة حرمة الحدود في جدول أعمال الشرق الأوسط إلا بعد تحديد هذه الحدود. ويبقى النزاع العربي ـ الاسرائيلي هو العقبة الرئيسية هنا. كما أن مسألة الحدود موضع نزاع بين دول الجزيرة العربية وكذلك بين دول شمال افريقيا. وربما يشهد المشرق العربي أيضاً نزاعات كهذه وإن كانت خفية بدرجة أكبر.

إلا أن كل هذا لا يحول دون الاستفادة من تجربة تحقيق اتفاق هلسنكي وحتى بعض عناصره في الشرق الأوسط. واتفقنا مع دي ميكيليس على مواصلة تبادل الآراء حول هذا الموضوع.

في صباح ١٧ تشرين الأول (اكتوبر) غادرنا روما إلى باريس. وفي النصف الثاني من هذا اليوم استقبلنا الرئيس الفرنسي ميتران.

وأظهر هو أيضاً أنه يتبع خط الاستفادة من كافة الامكانات المتوافرة «قبل أن نضطر لاتخاذ اجراءات استثنائية». ولكن الرئيس الفرنسي شأنه شأن اندريوتي لم يشك في أن الحرب وشيكة. وعبر ميتران عن تأييده للجهود التي يبذلها الاتحاد السوفياتي لتفادي الحل العسكري المحفوف بمخاطر جمة وتحدث عما تفعله فرنسا في هذا الاتجاه. وأكد ميتران على الجدوى البالغة للتنسيق بين موقفي الدولتين الدائمتي العضوية في مجلس الأمن.

وربما أدرك الرئيس ميتران أكثر من أي زعيم غربي آخر ضرورة دفع عجلة حل المشكلة الفلسطينية إلى الأمام وذلك من أجل حل أزمة الكويت أيضاً. وشاركنا ميتران رأينا أن هذا يمكن أن يكون «قلب» التسوية. ولكنه عبر عن شكه في أن يحظى تحول كهذا ـ مهما يكن شكله ـ بتأييد واشنطن. وقال ميتران أنه ينتظر لقاء بالرئيس غورباتشوف وأن حيزاً كبيراً من هذا اللقاء سيخصص لبحث موقفي البلدين إزاء أزمة الخليج العربي التي «صارت أخطر محك للمجتمع العالمي في العقد الأخير».

لقاءات في الولايات المتحدة

ما أن وصلنا إلى واشنطن في ١٨ تشرين الأول (اكتوبر) حتى توالت لقاءات مع المسؤولين الاميركيين. واستطرد فأقول إنهم لم

يخفوا اهتمامهم بهذه اللقاءات حتى أن بعضهم قد أشار إلى أن تبادل الآراء الصريح هذا مع السوفيات حول مسألة هامة تضطر الولايات المتحدة للعمل على حلها كطرف معني لم يكن ممكناً في «الأزمنة القديمة غير الطيبة». ولا شك أنهم رأوا في سعينا إلى إطلاعهم على ما لدينا من معلومات وخواطر حول كيفية حل الأزمة دليلاً على علو مستوى الثقة في العلاقات السوفياتية ـ الأميركية وعلى انتشار الروح الجديدة على الساحة الدولية.

وكان لقاؤنا الأول بوزير الخارجية بيكر. وحضره السيد روس وهو في الحقيقة خبير وزارة الخارجية الأميركية الأول في شؤون الشرق الأوسط. وشارك في هذا وغيره من لقاءاتنا بواشنطن بسميرتنيخ سفيرنا لدى الولايات المتحدة وزير الخارجية السوفياتي حالياً مشاركة نشيطة.

كان واضحاً أن بيكر لا يعلق أهمية كبيرة على اللقاء الأول هذا إدراكاً منه أن بانتظارنا لقاء أهم مع الرئيس بوش. أما روس فإن مهمته ـ أغلب الظن ـ كانت استشفاف تفاصيل موقفنا تحضيراً لهذا اللقاء الأهم. ولهذا فقد جاء إلى السفارة السوفياتية وتباحث معنا خلال عدة ساعات.

ولفت نظري أن روس وهو يستفسر عن تفاصيل موقفنا قد استقبل شروحاتي بتحفظ ان لم أقل بسلبية كما دلت ملامح وجهه

وأقواله. ولم يخف نفوره من اقتراحي باخطار العراق بفكرة تنشيط العمل في المحور العربي ـ الاسرائيلي بهدف حل المشكلة الفلسطينية بعد انسحاب القوات العراقية.

وقال روس بلهجة قاطعة: إن إسرائيل لن توافق على ذلك.

ولقاؤنا التالي بالجنرال سكوكروفت مساعد الرئيس الاميركي في شؤون الأمن القومي لم يسفر كثيراً هو أيضاً عن أشياء جديدة. وحضر اللقاء غيتس نائب سكوكروفت ورايس مساعدة الرئيس الاميركي في شؤون أزمة الخليج العربي (كانت رايس في حينها احدى أفضل طالبات الدراسات العليا في جامعة برينستون حيث لفتت أنظار المختصين واستدعيت للعمل في مجلس الأمن القومي الذي كلفت فيه بمتابعة العلاقات السوفياتية ـ الأميركية).

وربما أدركت رايس أن المقترحات السوفياتية تتضمن «شيئاً مجدياً». على كل حال هذا ما خيل إلي من لقاءاتي السابقة بها. إلا أنها شأنها شأن غيتس لزمت الصمت خلال اللقاء بسكوكروفت فيما اهتم الجنرال سكوكروفت أول ما اهتم برؤيتنا للوضع في العراق وليست مقترحاتنا بحل الأزمة.

انتهت رتابة اللقاء مع المجيء المفاجىء للرئيس بوش الذي كان قد خرج من منزله جارياً تحت وابل من المطر الغزير ودخل الغرفة التي نحن فيها للحظة كي يصافحنا وقطرات المطر تتساقط منه.

وقـال: «لا يسعني إلا أن أفعـل هـذا علمـاً أنكم فـي مكـتب سكوكروفت». وأقول صراحة أن مناقب بوش الانسانيـة هذه تحلو لي.

وسمعناه يقول: «أنتظركم بفارغ الصبر في صباح الغد».

استقبلنا الرئيس بوش في صباح ١٩ تشرين الأول (اكتوبر) في البيت الأبيض. ووجدنا معه بيكر وسكوكروفت وسكونو مدير سلك المـوظفين في البيت الأبيض وغيرهم من المـوظفين المقربين من الرئيس. وحرص بوش على تأكيد تقديره لايفاد مبعوث غورباتشوف إلى واشنطن لاطلاع المسؤولين الاميركيين على مساعينا في الشرق الأوسط. وتطرق الرئيس الأميركي أكثر من مرة إلى هذه المسألة.

وسأل بوش في معرض استفساره عن انـطباعـاتي عن اللقاء بصدام حسين عما إذا أمكن بالفعل اعتبار قول صدام «إني واقعي» كإعلان لصدام عن استعداده للانسحاب من الكويت. وسأل بوش عن طباع صدام حسين ونفسيته وتاريخ علاقاتنا به وتقدم باستفسارات أخرى كان خلالها يسجل في دفتره. وقصارى القول لقد خيل إلي أن بوش لم يكن بعد قد اتخذ قراراً نهائياً بضرب العراق. ولم يكن لديه مانع في أن نلتقي صدام حسين مرة أخرى. بل هو أيد هذه الفكرة قائلاً أن هدف اللقاء الثاني محدود وهو «إخطار صـدام حسين بأن موقف الولايات المتحدة ثابت لا يتزعزع».. وجدير بالذكر هنا أن بوش

أضاف على الفور قائلاً: «إذا بدرت من صدام حسين إشارة موجبة نلتقطها».

وقال بوش في الختام: ذكرتم أشياء مثيرة كثيرة. وهناك الجديد في عدد كامل من اقتراحاتكم. ولكن علي أن أتشاور مع مساعدي. فهل تنوون البقاء بعض الوقت في واشنطن؟

قلت إنني مستعد للبقاء إذا اقتضت الضرورة هذا.

وختم بوش قائلًا بمودة: سوف أخبركم بجوابي بعد ساعتين أو ثلاث ساعات.

جاء الجواب قبل ذلك. وغالب الظن أن كثيرين ممن حضروا اللقاء حلوا عقدة لسانهم ما أن انصرفنا. على كل حال لم يحتج الأمر إلى ساعتين أو ثلاث ساعات. فبعد ٤٥ دقيقة قال ليس غيتس أثناء المأدبة التي أقامها سونونو لنا: «لقد طلب مني الرئيس أن أقول لكم إن بإمكانكم أن تحددوا وقت سفركم بمشيئتكم». وأدركت أن لقاءنا لن يستأنف.

اتصل السفير السعودي الأمير بندر هاتفياً بسفيرنا راجياً أن نلتقيه. وقبل ذلك وصل مندوبنا الدائم لدى هيئة الأمم المتحدة فورونتسوف إلى واشنطن قادماً من نيويورك وهو صديقي منذ أن كنا طالبين في مدرسة بحرية عسكرية إعدادية. لذا سرني وصوله من الناحية الانسانية أيضاً بالطبع. وحضر لقائي بالسفير السعودي

بسميرتنيخ وفورونتسوف. وكان اللقاء طريفاً جداً إذ تمكنا فيه من إلقاء نظرة إلى مصدر هام يحصل منه البيت الأبيض على المعلومات عن تطور الأزمة في منطقة الخليج.

لم يوافق السفير السعودي على أن آثار الحل العسكري يمكن أن تكون وخيمة. وقال: «إنكم تبالغون. أنا طيار عسكري ويمكنني أن أجزم كخبير بأن الأمر سيحسم خلال ساعات معدودة في حالة توجيه ضربة إذا رفض العراق بالطبع سحب قواته. لا تبالغوا في تقدير عدد الضحايا الممكن. فالعملية ستنفذ بأحدث الاليكترونيات وستكون «جراحية».

كنت أعلم حينذاك ثم اقتنعت خلال لقائي بالملك فهد وغيره من القيادات السعودية بأن هناك في الأسرة الملكية من لا يشارك الأمير بندر موقفه القاطع هذا. ولكنه كان سفيراً لدى الولايات المتحدة.

لم يعارض السفير السعودي ـ والحق يقال ـ الحل السياسي حتى أنه قال ان الاتحاد السوفياتي وحده «يستطيع» التأثير في موقف العراق تأثيراً طيباً.

جاء إلى السفارة السوفياتية لمقابلتنا كثيرون من أصدقائنا الأميركيين وبينهم باميلا هاريمان أرملة الشخصية السياسية المرموقة وهي أيضاً من كبار الشخصيات الاجتماعية الاميركية. ورافقتها

جوديت كيبير الباحثة في معهد بروكينغ الشهير التي تلم بوضع الشرق الأوسط. وكان اللقاء معهما على قدر كبير من الأهمية لا سيما وأن آراءهما تعكس آراء قسم كبير من المثقفين الاميركيين.

فقالت هاريمان: «على أي حال لا ينبغي للاتحاد السوفياتي أن يتخلى عن جهوده المبذولة لتفادي الحل العسكري. ان بعض رجال المؤسسة الحاكمة الأميركية في رأينا لا يتصورون الاتجاه الذي قد يدفعنا إليه التيار العفوي».

بعد أن أرسلنا تقريراً مستفيضاً عن لقاءاتنا بالمسؤولين الأميركيين تبادلنا ـ أنا وبسميرتنيخ وفورونتسوف ـ انطباعاتنا. وأجمعنا على وجوب مواصلة التعاون السوفياتي ـ الأميركي من أجل تحقيق الهدف المبدئي الرئيسي. انسحاب العراق من الكويت والذي لا تتنافى معه الجهود التي يبذلها الاتحاد السوفياتي من خلال بعثتنا.

وقبل ساعات من مغادرتنا إلى موسكو اضطررنا لتغيير مسارنا. ذلك أن الرئيس غورباتشوف طلب منا أن نتوجه أولاً إلى لندن لنلتقي رئيسة الوزراء تاتشر بناء على طلبها. وتقدمت حكومتا اليابان وكندا بطلب مماثل. ولكننا اضطررنا ـ مع الأسف ـ إلى عدم الذهاب إلى كندا واليابان منتظرين رحلة جديدة إلى الشرق الأوسط.

لقاء مع «السيدة الحديدية»

قال زامياتين سفيرنا في لندن إن رئيسة الوزراء نادراً ما تستقبل الضيوف في مقرها الريفي تشيكيرز. وما جعلها تستقبلنا هناك هو في رأيي وصولي إلى لندن في يوم السبت بينما تفضل تاتشر قضاء العطلة الأسبوعية في ضواحي لندن. أوصلتنا السيارة خلال ساعة إلى بوابة ثقيلة لقصر انكليزي عريق. وكانت في استقبالنا تـاتشر في ممشى مكسو بالحصى.

كان لقاؤنا في جو غيـر رسمي. فقد جلست رئيسـة الوزراء ومساعدها باوئيل وأنا والسفير السوفيـاتي وماركـاريان على كـراس قديمة أمام مدفأة جدارية. وخيل أن ما من شيء يمكن أن يوتر الجو هنا. واستمعت تاتشر باهتمام إلي دون أن تقاطعني.

ثم تكلمت خلال ساعة كاملة دون توقف معبرة عن وجهة نظر استحوذت أكثر فأكثر على عقول الناس ومؤداها أنه لا يجب الاكتفاء بسحب القوات العراقية من الكويت بل يجب توجيه ضربة ساحقة إلى العراق و«كسر ظهر» صدام حسين وتـدمير كـل قدرات هـذا البلد العسكرية وربما طاقاته الصناعية. ولم تخف تاتشر ما كان يدور في قرارة نفسها قائلة: «لا يجوز الحؤول دون تحقيق هذا الهدف. ولا ينبغي لنا أن نترك صدام حسين يشك في عزم المجتمع الدولي على

بلوغ أهدافه. بل ولا ينبغي لأحد أن يحاول تجنيب هذا النظام الضربة اللازمة».

وبصعوبة وجدت منفذاً لأقول: معنى ذلك أنكم لا ترون سوى الحل العسكري؟

فقالت تاتشر: لا أرى.

ـ فمتى ستبدأ العمليات الحربية؟

ـ لا يمكنني أن أقول هذا لكم لأنها يجب أن تباغت العراق.

بقيت «السيدة الحديدية» كما هي حتى عندما تطرقت إلى مسألة ترتيب أمور الشرق الأوسط بعد الأزمة. وقالت إن العقوبات الاقتصادية المفروضة على العراق يجب أن تستمر حتى إذا انسحب من الكويت. .

استمر اللقاء أكثر من ساعتين. وادراكاً مني أن الحديث يزداد حدة اقترحت اختتامه مشيراً إلى أن اللقاء كان مفيداً إذ أتاح توضيح المواقف.

وسرعان ما استعادت «السيدة الحديدية» حفاوتها كسيدة مضيافة فاقترحت علينا أن ننتقل إلى المكتبة لتبديل الجو والترويح عن همومنا.

وودعتنا من جديد عند عتبة قصر تشيكيرز العريق.

القسم الثالث

في الشرق الاوسط من جديد

بمجرد وصولي إلى موسكو بلغت الرئيس ميخائيل غورباتشوف بنتائج الزيارة. وكان الاستنتاج الرئيسي يتلخص كالأتي: أن بارومتر الأوضاع يشير بوضوح إلى الحل العسكري. وأن أنصار توجيه ضربة عسكرية قوية إلى العراق لم يضعوا نصب أعينهم هدف طرد صدام حسين من الكويت فقط بل والقضاء على قدرة البلد العسكرية ـ الصناعية. وبهذا التفسير تكون المهمة التي طرحوها قد تعدت أطر قرارات مجلس الأمن الدولي.

وهذا الاستنتاج لم يكن بالطبع مناظراً للادعاء القائل بأن الائتلاف المناهض للعراق متفق في مواقفه من تسوية الأزمة الكويتية. وقد برز ذلك بالأخص عند المقارنة بين موقفي الرئيس الفرنسي ميتران ورئيس الوزراء الايطالي اندريوتي من جهة وبين موقف رئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر من جهة أخرى. على أن خصوصية الوضع بدت في كون فرنسا وايطاليا شأنهما في ذلك على ما يبدو شأن الكثير من الأوروبيين الغربيين الأخرين الذين يميلون إلى الخط المتحفظ كانتا تدركان مع ذلك بأنهما في حالة عدم

التوصل إلى حل سياسي ستجدان نفسيهما متورطتين بهذا القدر أو ذاك في العمليات العسكرية.

وكان الرئيس بوش لا يزال في حالة تردد وترقب ولم يكن واثقاً بعد كل الثقة من صحة الاختيار العسكري. ولكنه تعرض على ما يبدو لضغط متنام من الداخل والخارج.

أبلغت ميخائيل غورباتشوف بأن خط الاتحاد السوفياتي الرامي إلى البحث عن إمكانيات تكفل التسوية السلمية للأزمة مع مراعاة ضرورة انسحاب القوات العراقية من الكويت بالطبع وجد التأييد الواسع وسط جميع أولئك عملياً الذين يهمهم إيجاد بديل للحرب. فجميع مسؤولي الدول التي قدر لي مقابلتهم عبروا عن اهتمامهم المباشر في مواصلة اتصالاتنا معهم بشأن تطور الأوضاع في منطقة الخليج العربي.

وبعد أن استمع لكل ذلك أوعز الرئيس غورباتشوف لي بالسفر إلى كل من القاهرة ودمشق والرياض وبغداد. وقد كلفني الرئيس أن أبحث في العواصم المصرية والسورية والسعودية بشكل إضافي هذه أو تلك الامكانات الكفيلة بتنشيط «العامل العربي» من أجل حمل العراق على سحب قواته من دون اللجوء إلى استعمال القوة ومن دون «مكافأته».

وأوصاني الرئيس غورباتشوف أن أقوم عند مقابلتي صدام حسين ببسط صورة كاملة للوضع الذي سيضطر إلى مجابهته في حالة رفضه الاذعان لمطالب المجتمع الدولي. وكلفني أيضاً بالعودة إلى مسألة إجلاء الخبراء السوفيات من العراق. فمع أن التزام الجدول

الزمني لرحيل ١٥٠٠ شخص كان جارياً وفقاً للاتفاق السابق إلا أن علائم مضاعفات جديدة أخذت تلوح في الأفق. فقد رفضت السلطات العراقية بحث مسألة عودة مواطنينا الأخرين إلى الوطن من غير العدد المتفق عليه. وتعقد الوضع أيضاً فيما يخص رحيل الخبراء العسكريين الذين انتهت مدة عقودهم. فلم يجر السماح لأحد منهم عملياً بمغادرة العراق. بل حتى أولئك الذين أنهوا معاملات السفر جرى إنزالهم من الطائرة مباشرة.

وقد قال ميخائيل غورباتشوف إنه يجب بشكل حاد طرح المسألة المتعلقة أيضاً بالرهائن الأجانب الذين يحتجزهم العراق في المنشآت العراقية العسكرية والاستراتيجية الأخرى. وكلفني في الوقت ذاته أن استغل سفرتي إلى الشرق الأوسط كخطوة تمهيدية لتنشيط الخط الرامي إلى بذل الجهود من أجل إيجاد تسوية سلمية للنزاع العربي ـ الاسرائيلي.

وإني في معرض توقفي بالتفصيل على جوانب مهمتي لا أود أبداً أن يتكون لدى القارىء انطباع وكأنها كانت جانباً مستقلاً أو تكاد أن تقف في مجابهة الجوانب الأخرى من الجهود التي بذلها الاتحاد السوفياتي من أجل التوصل إلى تسوية سياسية. فهذه المهمة كانت متوائمة عضوياً مع المفاوضات والزيارات واللقاءات والمحادثات الأخرى التي كانت كثيرة. وقد اتخذت كلها من جوانب مختلفة، البعض علناً والبعض الأخر على صعيد مغلق. ولكن المضمون الخاص لمهمتنا ربما كان يتلخص في كونها القناة الوحيدة عملياً للاتصال المباشر بصدام حسين.

وأود بشكل خاص أن أتكلم حول السفراء السوفيات في تلك البلدان العربية التي قدر لي زيارتها. فبولياكوف في مصر وغريادونوف في الأردن وزوتوف في سورية وبوسوفالوك في العراق وكولوتوشا السفير السابق في لبنان مدير دائرة في وزارة الخارجية السوفياتية حالياً على الرغم من اختلافهم الشديد، فهم جميعاً دبلوماسيون كفؤون وسياسيون حاذقون مطلعون أفضل الاطلاع على مجرى الأمور في العالم العربي. وهم جميعاً من المستعربين الذين يلمون باللغة العربية ويبذلون كل ما في وسعهم من أجل توثيق أواصر الصداقة مع شعوب البلدان التي يقيمون فيها بغرض ضمان المصالح السوفياتية. وتربطني معهم جميعاً علاقات صداقة شخصية. وإن المحادثات مع سفرائنا وسعيهم في تنظيم اللقاءات والمساعدات لعبت دوراً كبيراً في تنفيذ مهمتنا.

في يوم ٢٣ تشرين الأول (اكتوبر) غادرت موسكو من جديد. واتخذت الطائرة طريقها هذه المرة إلى القاهرة.

وخلال الطريق من المطار إلى المدينة تجاذبت أطراف الحديث مع وزير الدولة للشؤون الخارجية بطرس غالي. وقد أبدى قلقه الكبير من نتائج الحرب. وقد لمست قلقاً واضحاً من تطور الوضع من جانب صديقي العتيد المحلل الدقيق أسامة الباز الذي يترأس الدائرة السياسية في ديوان الرئيس حسني مبارك.

إن مشاعر القلق التي لمستها أثناء المحادثات الطويلة معه كانت لا تنبع على ما يبدو من كون مصر شاركت في القوات المتعددة الجنسيات فحسب، بل ومن واقع أن مئات آلاف العمال كانوا في

تلك البلدان الخليجية التي يمكن أن تصبح مسرحاً للعمليات الحربية. وهو كان يتصور بدون أي رتوش الوضع ما بعد الأزمة وبالأخص احتمال اشتداد النزعة الأصولية الاسلامية. وهذا على الرغم من أن السعودية التي يعتبر عاهلها حامي الحرمين الشريفين في عداد الدول المجابهة للعراق.

برزت «عثرتان». إحداهما ذات طابع «تنظيمي - فني». فقد كان الرئيس مبارك في جولة في بلدان الخليج وكان على استعداد لاختصار مدة مكوثه هناك كما ذكر أسامة الباز ومقابلتي في القاهرة ولكن في اليوم التالي المصادف ٢٦. و«العثرة» الثانية كانت بالأحرى ذات طابع سياسي. فقد قال أسامة الباز الذي كان على اتصال دائم مع وزير الخارجية السعودي سعود الفيصل بأنه يرجوني أن أتوجه في البداية إلى بغداد ومن ثم إلى الرياض. في حين أن بغداد كما بدا من المكالمة مع السفير العراقي في القاهرة كانت تريد أن تأتي زيارة البلدين في تتابع مغاير.

وبعد أن تمحصت الأمور توصّلت إلى الاستنتاج التالي: ينبغي مع ذلك اعتماد «الصيغة السعودية» لأن من شأن ذلك أن يتيح لي في حالة التطور المؤاتي للأوضاع المجيء من بغداد لمقابلة الملك فهد وفي جعبتي شيء ما.

رجوت نقل موعد المقابلة المحددة في وقت أسبق مع الرئيس السوري حافظ الأسد إلى يوم ٢٥. لم يطل انتظار الرد وفي وقت مبكر من صباح يوم ٢٥ حطت الطائرة في دمشق.

إن الرئيس حافظ الأسد يحسن بطريقته الخاصة الاصغاء لمحدثه . ويعد أن أيد مواقفنا من الجهود المبذولة لايجاد مخرج من الأزمة الكويتية تقدم بفكرة مهمة للغاية .

فقد قال : ولماذا لا نعقد لقاء «قمة» عربي ؟ فبوسع هذا المؤتمر أن يتوجه إلى صدام حسين بنداء يدعوه فيه إلى سحب قواته من الكويت خدمة لمصالح الأمة العربية كلها . وينبغي أن يشير هذا النداء إلى أن هذا الانسحاب من شأنه أن يفتح الطريق كما يأمل العرب نحو حل القضية الفلسطينية .

ـ وهل سيتسنى عقد لقاء «قمة» كهذا؟

يمكن أن تكون هناك أشكال أخرى للمبادرة العربية على شكل رسالة إلى صدام حسين يوقعها رؤساء البلدان العربية وحتى إن لم تكن موقعة من الجميع .

وان الاتحاد السوفياتي على حد تعبير الرئيس الأسد يمتلك بحكم الوضع الناشىء إمكانات فريدة في بابها فهو قد يعتبر الدولة الوحيدة القادرة على إعداد «القرار العربي» من خلال الاتصالات مع صدام حسين .

في يوم ٢٦ عدنا من جديد إلى القاهرة حيث تم لقائي مع الرئيس حسني مبارك .

وهنا جرى التشديد على استبعاد الحرب . ولكن برزت في غضون ذلك بوضوح أشد المخاوف من أن الخطوات نحو التسوية السياسية يمكن أن تخلق لدى صدام حسين فكرة خاطئة حول التناقضات داخل الائتلاف وأن تستخدم كدافع لرفض المطالب

بسحب القوات. وقد عبر الرئيس مبارك هو الآخر عن تأييده للمبادرة السوفياتية وأغنى بدوره المعادلة المقترحة بالاقتراح التالي: إذا وافق صدام حسين على الخروج من الكويت فيمكن تقديم الضمانات له التي تكفل خلق جو مؤات لمواصلة مفاوضاته مع الكويت. وعن السؤال المطروح دون مواربة أجاب حسني مبارك دون تردد: بوسعي تقديم الضمانات مسبقاً.

- وماذا بخصوص السعودية؟

- بوسعي أن أعد بكل ثقة أن السعودية سوف تنضم إلى هذه الضمانات.

ومع ذلك فقد كان حسني مبارك يشك أكثر من حافظ الأسد بإمكانية تنظيم لقاء عربي على مستوى القمة. ولكن آراءنا كانت متطابقة كلياً في تلك المسألة المتعلقة بوجود حد فاصل بين «مكافأة» العراق على ما ارتكبه وبين إتاحة الفرصة له للخروج من الكويت دون مهانة.

بدا وكأن تفاؤلي قد ازداد بعض الشيء بعد اللقاءات في دمشق والقاهرة. إن مفتاح نجاح المهمة كان يقع في بغداد بالطبع ولكن زيارتي إلى هناك أصبحت في موضع الشك. فقد استدعى طارق عزيز سفيرنا بوسوفالوك وأبلغه بأن القيادة العراقية تنظر بشكل سلبي كلياً نحو القرار الجديد الذي سيتخذه مجلس الأمن الدولي والذي يطالب العراق بدفع تعويضات عن الأضرار التي لحقت بالكويت. وان هذا القرار على حد تعبير طارق عزيز يضع العراق تحت تهديد دائم خلال فترة زمنية غير معلومة بالنظر لأن الادعاءات قد تستمر دون

انقطاع بل وان تزداد كالانهيار الثلجي. وزعم طارق عزيز ان الاتحاد السوفياتي «يعمل بنشاط على تمرير القرار وعلى تقسية صيغته». وفي هذه الحالة لا يمكن على حد قول طارق عزيز اعتبار مجيء ممثل الرئيس السوفياتي إلى بغداد مثمراً.

بعد أن تلقيت خبر هذا الحديث اتصلت هاتفياً في الليل مع ممثلنا الدائم في الأمم المتحدة فورونتسوف من أجل تبيان الوضع العام. وقد اتضح أن القرار سوف يتخذ أما اليوم أو في مساء يوم الجمعة (مع مراعاة فارق الزمن) أو في النصف الأول من يوم السبت. بيد أن القرار قد نسق في «شكل معتدل» وانطوى على الكثير من عناصر الاقتراحات التي تقدم بها كل من اليمن وكوبا.

ـ هل هناك ضرورة لأن يتخذ مجلس الأمن فوراً قراراً آخر؟

اتضح من إجابته أن ممثلي الولايات المتحدة وبريطانيا يصران على ذلك.

بعد هذه المكالمة الهاتفية أرسلت من القاهرة إلى موسكو برقية رجوت فيها الايعاز لممثلنا في مجلس الأمن الدولي بإجراء مشاورات من أجل إرجاء موعد اتخاذ القرار يومين.

اتصلت في ذلك الوقت مع بغداد وأمليت لنقله إلى طارق عزيز نصاً بالمضمون التالي تقريباً: إن إقدام الطرف العراقي في هذه اللحظة الحساسة التي تبذل فيها موسكو ما في وسعها من أجل إيجاد مخرج سياسي من الوضع على خلق العراقيل في هذا الطريق إنما يثير الحيرة على أقل تقدير. وإن مجيئي إلى بغداد لا يغدو ممكناً في هذه الحالة إلا إذا تلقيت دعوة مكررة. وإن الزيارة ستعتبر لاغية إذا لم

نتلق الجواب من بغداد في موعد أقصاه منتصف نهار اليوم التالي.

أنجز سفيرنا في بغداد المهمة فوراً وأعطى طارق عزيز الجواب في الحال هو الأخر: العراق مستعد على أعلى المستويات لاستقبال ممثل الرئيس السوفياتي.

إني إنما أتحدث بمثل هذه التفاصيل عن مشهد قد يبدو عابراً لأنه يبين مدى اهتمام العراق بمهمتنا. فالجواب الذي وصل من بغداد قد حل أيضاً المسألة المتعلقة بتتابع الزيارات إلى بغداد والرياض. وفي اليوم التالي حطينا في مطار بغداد. في حين اتصل ممثلنا في الأمم المتحدة بزملائه في مجلس الأمن الدولي ورجاهم إرجاء اتخاذ القرار يومين، أي ريثما تصل المعلومات حول المحادثات في بغداد. وقد صادقت عواصم الدول التي تتمتع بعضوية دائمة في مجلس الأمن الدولي على هذا التأجيل. ترى ما الذي كان ينتظرنا في بغداد.

العودة الى بغداد

كانت المقابلة الثانية مع صدام حسين طويلة كالأولى وتكونت هي الأخرى من جزأين ، في حضور الآخرين في البداية ثم المحادثات على انفراد. ومما له دلالته هنا أن صدام حسين دعا لحضور المقابلة جميع أعضاء القيادة العراقية عملياً. وكأن الجميع في ملابس من نمط واحد، البزة العسكرية.

وقد قال صدام: إنني تعمدت خصيصاً استدعاء زملائي في

القيـادة إلى هنـا فـدعهم يسمعـون حـديثنـا إذ بينهم «الصقـور» و «الحمائم».

لا استبعد أنه ذكر ذلك متعمداً كي يبين لي وجود مجال معين للمناورة. ولكنني لا أشك مع ذلك أن شخصاً واحداً كان يبت في كل شيء. وكانت «حرية التفكير» تتمثل في كون بعض الذين حضروا المقابلة هزوا رؤوسهم بحماس خاص معلنين بذلك موافقتهم مع ما يقوله صدام حسين. بينما قام الأخرون بذلك بقدر أقل من الحماس ولكنهم لم يتوانوا عن ذلك قط.

إن أهمية المقابلة الثانية مع صدام حسين تتمثل قبل كل شيء من وجهة نظر مقارنتها بالأولى. فالأسابيع الثلاثة الماضية تركت مع ذلك تغيرات معينة. فإذا كان صدام حسين قد شدد في يوم ٥ تشرين الأول (اكتوبـر) كما قدمت على «عائدية الكويت التاريخية» للعراق بالجردة الرئيسية فإنه لم يتطرق في ٢٨ تشرين الأول (اكتوبر) إلى هذا الموضوع كلياً. وفي هذه المرة لم يعد يستقبل صدام حسين بشكل سلبي كلامي حول ضرورة سحب القوات من الكويت «باعتباره خطوة أولى في أي تحرك». بل وأبدى رغبة في الحديث ولو بشكـل غير مباشر حول الشروط الملموسة لهذا الانسحاب وفي محادثاتنا على انفراد (في حضور كيربيتشينكو الذي قام بـالترجمـة) لاحظ صدام حسين قائلاً: «هل يمكنني أن أعلن انسحاب القـوات إذا كنت لا أعلم كيف سيجري تقريـر مسألـة انسحاب القـوات الاميركيـة من السعودية وهل سيستمر سريان العقوبات التي فرضها مجلس الأمن الدولي ضد العراق أو لا يستمر وكيف سيتم ضمان مصالح بلدي فيما

يخص المنفذ البحري وهل سيجري اقتراح شكل معين يـربط بين انسحـاب القـوات العـراقيـة من الكـويت وبين حـل القضيـة الفلسطينية؟».

وفي أثناء المقابلة (وقد كانت لـدي تعليمات مبـاشرة بهـذا الصدد من الرئيس السوفياتي) أعلنت بتصميم حـول ضرورة حـل جميع المسائل المتعلقة بسفر السوفياتيين من العراق. وقد استدعى صدام حسين في حضوري سكرتيره الخاص وكلفه بأن يبلغه شخصياً بكل مرة يجري فيها حجز الخبراء السوفيات الراغبين في العودة إلى الوطن.

وأوعز أيضاً بخصوص الخبراء العسكـريين بالسمـاح لجميع الذين أنهوا عقودهم بمغادرة العراق فوراً. وكتأكيد لذلك وصل إلى موسكو في صباح يوم ٢ تشـرين الثاني (نـوفمبر) على متن طـائرة ايروفلوت ٣٦ خبيراً عسكرياً. وتم وضع جدول زمني إضافي حتى نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) لسفر ألف مواطن سوفياتي آخر. وبالمناسبة فإن هذا الرقم كان يفوق آنذاك عدد الطلبات بالسفر التي تقدم بها خبراؤنا إلى المنظمات السوفياتية في العراق. ثم أكد صدام حسين مرة أخرى بأن كل شيء سوف يتوقف على رغبة هذا أو ذلك من خبرائنا في مغادرة العراق.

ولكني أود أن أتحدث بتفصيل خاص حول واحد من الخبراء السوفيات. فالسلطات العراقية احتجزت طوال عامين ونصف العام سائق شاحنة كاماز من كييف بسبب حادث مرور راح ضحيته عدد من السكان المحليين. وقد برأت المحكمة العراقية مرتين ساحة سائقنا

الذي عمل في العراق بموجب عقد ومع ذلك لم يسمح له بمغادرة البلاد معيدين القضية مرة بعد أخرى إلى التحقيق الاضافي. الأمر الذي أرهق الشخص كلياً. فقد عاش هناك وحيداً من دون عائلته. وكان في حالة نفسية يرثى لها. وإني بإيعاز من ميخائيل غورباتشوف شددت في حديثي مع الرئيس العراقي على هذه المسألة بشكل خاص. وفي الحال تلقيت الموافقة على حل المسألة وفي غضون ليلة واحدة أنجزت المعاملات اللازمة. وحلق معي سائقنا الذي لم يعد يعي نفسه من شدة الفرحة ولكنه توجه في البداية إلى السعودية ثم إلى قبرص ومن هناك إلى الاتحاد السوفياتي. وإن هذا المسكين كان قد عانى إلى ذلك الحد بحيث خاف في البداية الخروج من الطائرة في هذين البلدين. ولكنه ما لبث أن أدرك مع ذلك بأنه لم يعد هناك ما يهدده.

وثمة انطباع آخر هو أن صدام حسين كان خلافاً للمقابلة الأولى على استعداد لخوض الحديث في مقولات ملموسة إلى حد ما حول تسوية قضية الرهائن الأجانب في العراق.

فقد أبدى صدام اهتمامه بفكرة النشاط العربي في قضية التسوية. وإني نقلت له بالطبع مضمون حديثي بهذا الخصوص مع الرئيسين حافظ الأسد وحسني مبارك. ما الذي استوقف الانتباه؟ ان صدام حسين شدد على السعودية بمثابة الطرف العربي الرئيسي بل وربما الوحيد للتفاوض. وأكد بأنه على استعداد للتوجه شخصياً أو إرسال أي شخص من مساعديه للقاء مع المسؤولين السعوديين المعنيين في أي وقت ومكان.

ولكن ما أرى لزاماً علي أن أقوله هنا هو أن صدام حسين لم يتفوه بتحديد بكلمة «نعم» في المسألة الرئيسية. وعندما انفردنا لاحظت قائلاً:

ـ إنك تعرفني منذ وقت بعيد وتأكدت على ما يبدو إني أسعى إلى مصارحتك بالحقيقة. وهكذا فالعراق سيتلقى لا محالة ضربة ستكون ماحقة إذا لم تعلن عن خروجك من الكويت وتقوم بذلك فعلاً.

وفي جوابه كرر صدام مرة أخرى بأنه لا يستطيع القيام بأي شيء بارتجال ودون معرفة الاجابة عن الأسئلة المذكورة أعلاه. وأكد صدام حسين: «إن ذلك سيكون انتحاراً بالنسبة لي. والأمر لا ينحصر فيَّ فقط. فلو أعلنت عن سحب القوات من دون أن أتلقى جواباً عن هذه الأسئلة لكان ذلك انتحاراً للعراق. لهذا بالذات إني أنتظر مواصلة الاتصالات»...

وكما لم أتلق من صدام إشارة مباشرة باستعداده للخروج من الكويت فقد صوت أعضاء مجلس الأمن الدولي في يوم الاثنين إلى جانب القرار المعني. ومع ذلك فقد رأيت أننا لا نتوجه إلى الرياض «خاليي الوفاض».

وبينما كنا في الطريق من بغداد إلى الرياض عقد رئيسا الاتحاد السوفياتي وفرنسا مؤتمراً صحفياً مشتركاً في باريس. وقد أذاعت وكالات الأنباء وحصلنا على معلوماته التفصيلية بعد عودتنا إلى موسكو أن رئيسي الاتحاد السوفياتي وفرنسا قد بحثا بالتفصيل كل

جوانب اللقاء مع صدام حسين التي وجدت انعكاساً لها في الأجوبة على أسئلة الصحفيين.

على الأرض السعودية

إن اللقاء الرئيسي في هذا البلد الذي وصلته لأول مرة جرى في جدة حيث اجتمع حول مائدة طويلة جداً تشبه تماماً الموائد في مكاتبنا الرسمية جميع كبار أفراد العائلة المالكة السعودية برئاسة الملك فهد. وكان حاضراً هنا أيضاً ولي العهد الأمير عبد الله وكذلك وزير الدفاع الأمير سلطان ووزير الخارجية الأمير سعود الفيصل.

ولم يكن قد مضى إلا فترة قصيرة على إعادة العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفياتي والسعودية التي انقطعت في الثلاثينات. وان السعوديين الذين يفتقرون إلى خبرة التعامل السياسي المباشر معنا أرادوا بالطبع معرفة أكثر ما يمكن وبقدر أكبر من التفصيل حول مواقفنا ورؤيتنا للوضع. وعندما قلت إن الاتحاد السوفياتي لا يتراجع خطوة واحدة وينطلق بالتأكيد من ضرورة انسحاب القوات العراقية واستعادة الوضع الذي كان في الكويت قبل الثاني من آب (أغسطس)، ولكنه يحاول بذل كل ما في وسعه من أجل تحقيق هذا الهدف بالوسائل السياسية، قابل الملك فهد ذلك بالتصفيق. وعموماً فإن السعوديين يجذبون المرء بعدم تكلفهم وسجيتهم. ربما كان ذلك نابعاً من طبيعتهم البدوية - الطيبة ودماثتهم عموماً.

إن الملك وأعوانه نظروا بعين التفهم إلى فكرة «الرزمة غير المرئية» للحديث مع صدام حسين. وفي الوقت ذاته لمست عندهم مثلما عند الأميركيين مشاعر من القلق الكبير، ألن يعتبر صدام حسين هذه المقترحات بمثابة حجة للمماطلة بهدف تعزيز مواقعه في الكويت. وكان مما يثير انفعالهم خط العراق الرامي إلى إحداث تغيرات سكانية حادة في البلد الذي اغتصبه بهدف طرد السكان الأصليين. والظاهر أن العائلة المالكة كانت لا تخلو أيضاً من أولئك الذين يميلون إلى ضرورة الانتقال الفوري إلى الخطوات العسكرية لأن الوقت «يعمل» لصالح صدام. ومع ذلك فإني اعتقد أن الملك فهد احتل موقفاً على قدر أكبر من التروي. وان طبيعة الحديث معنا ـ الصريح والودي بشكل بالغ ـ لا يدل على حسن الضيافة السعودية التقليدية فحسب، بل بوسعي أن أقول إن الملك فهد عول بكل صدق على إمكانية إرغام العراق على الخروج من الكويت بالطرق غير العسكرية.

أما العلاقات مع العراق فكانت «موضوعاً حساساً». فقد جرت الشكوى من أن العراق لم يقدر المساعدة والدعم الواسعين لا سيما في المجال المالي اللذين تلقاهما من السعودية والكويت ودولة الامارات إبان الحرب مع إيران. وكان لمثل هذه «المراجعات» ما يبررها. ولكن موقف الرياض من العراق كان أبعد من أن تتحكم به الدوافع العاطفية فقط.

فالعراق كان دائماً ـ وفي الأونة الأخيرة بقدر أكبر ـ «مركزاً للقوة» في منطقة الخليج العربي لا يجابه إيران وحدها بل والسعودية التي هي دون شك الدولة العربية الرائدة في شبه الجزيرة العربية.

وكانت لا بد أن تستوقف الاهتمام بهذا الصدد خواطر الملك في الموضوع المتعلق بمدى إمكانية التوصل ـ حتى في حالة التسوية السلمية للأزمة الكويتية ـ إلى ذلك النظام الذي يتعذر في ظله على العراق العودة من جديد إلى تهديد جيرانه. فإذا لم يكن ذلك ـ قال الملك فهد ـ فسوف نضطر نحن أيضاً إلى التدجج بالسلاح وليس فقط عن طريق زيادة مشتريات السلاح بل عن طريق قيامنا بصنع وتنمية إنتاج الأسلحة الأكثر تطوراً. إننا نرفض ذلك رفضاً قاطعاً واعتقد أن سباق التسلح في منطقتنا هو في غير مصلحة الاتحاد السوفياتي أيضاً.

وقد وافقته في ذلك كلياً.

وقد نقلت إلى العاهل السعودي ـ طبعاً ـ قول صدام بأن الملك فهد بالذات قادر أكثر من أي زعيم آخر من الزعماء العرب على أن يقوم بدور رائد في تسوية الأزمة الكويتية وكذلك اقتراح صدام حسين إجراء لقاء معه. تهرب الملك من الاجابة المباشرة إلا أنه ذكر بأن هذه اللقاءات سبق وأن كانت، فقد جاء إلى هنا طه ياسين رمضان نائب رئيس الوزراء العراقي

وجرت الاتصالات في البلدان الأخرى. وقد أحسست أن الملك لم يرد اتخاذ قراره حول لقاء سعودي ـ عراقي جديد رأساً. فقد بدا هنا تأثير التنسيق الوثيق بين القيادتين السعودية والأميركية (بل وكان لا بد من ذلك في ظروف وجود القوات الأميركية داخل الأراضي السعودية). كما أثر هنا على ما يبدو اختلاف الأراء داخل العائلة المالكة. ولكن الملك فهد دعا حتى في هذه الظروف إلى مواصلة مهمتنا. وقال بأنه يقوِّم عالياً روح الثقة الناشئة في العلاقات بين بلدينا وأعلن بأنه سوف يوجه رسالة إلى ميخائيل غورباتشوف يضمنها خواطره حول الوضع وانطلاقاً من الحديث المسهب معنا.

أما وزير الخارجية سعود الفيصل فقد نقل لي رغبة أمير الكويت في مقابلة ممثل الرئيس السوفياتي. وكان الأمير قد تمكن أثناء دخول القوات العراقية إلى الكويت من الهرب من قصره الذي تعرض للهجوم والوصول إلى السعودية. وأبلغني السعوديون بأن الطائرة الملكية يمكن أن تنقلنا إلى مدينة الطائف حيث يقع على مقربة منها مقر الأمير في فندق «شيراتون».

لقد اعتمدنا بثبات منذ بداية الأزمة الكويتية مبدأ يدعو إلى استعادة الكويت لسيادتها وأبدينا تعاطفنا الصادق مع الشعب الكويتي في محنته هذه ولم ننس إطلاقاً أن الكويت كانت أولى الامارات النفطية التي أقامت معنا علاقات دبلوماسية وتحتفظ باتصالات وثيقة.

وكانت أهمية هذا اللقاء بالنسبة لنا تنبع أيضاً من كونها تتيح الفرصة لمعرفة موقف الأمير شخصياً من النشاط السياسي السوفياتي فالكويت ولأسباب بديهية كانت تلتزم أكثر من غيرها بخط متصلب وترى ضرورة استعمال القوة ضد العراق. ولكنني لمست أن الأمير تقبل بارتياح توضيحاتنا ولم يشكك إطلاقاً بجدوى المحاولات الرامية إلى التماس مخرج سياسي من هذه المتاهة.

في الولايات المتحدة من جديد ولكن بمناسبة أخرى

في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) جرى في فندق «ولدورف ـ استوريا» في نيويورك حفل تقليد جائزة جون كندي. وقد منحوني والسيناتور وليم برادلي هذه الجائزة في العام ١٩٩٠. وقد جاء وصولي إلى نيويورك بداية بحث مجلس الأمن الدولي لمشروع قرار آخر يحدد هذه المرة الموعد الذي يصادق بعد حلوله على استعمال القوة ضد العراق. وقد تلقيت طلبات عديدة من الشركات التلفزيونية والصحف لاجراء مقابلة معي. وإحدى هذه المقابلات نشرتها «نيويورك تايمز» في عددها الصادر في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) وقد اقترحت في أثنائها إرجاء اتخاذ هذا القرار.

إن الدوافع التي جعلتني أراه غير مناسب بدت لي وجيهة إلى حد كاف. فمشروع هذا القرار كان يمكنه أن ينطوي على أهمية إذا ما بات احتمال تبنيه نفسه سيفاً مسلطاً على العراق. وكان من شأن ذلك توفير ظروف إضافية لممارسة الضغط السياسي بهدف دفعه إلى سحب القوات من الكويت. ولكن ما ان يصبح هذا القرار واقعاً، وخاصة عن تحديد أقصى موعد لاستمرار الجهود الدبلوماسية. حتى يتقلص نطاق هذه الجهود. وعلى الصعيد النفسي ـ وقد كنت على يقين من ذلك ـ أن تبني القرار كان يمكن أن ينقلب إلى عكس النتيجة المرجوة منه. وكان لا يزال ندياً رد العراق الذي أتيت على ذكره آنفاً، على السلسلة الطويلة من القرارات التي اتخذها مجلس الأمن الدولي فور غزوه للكويت.

إن موقفي السلبي من المصادقة المزمعة على هذا القرار اجتذب في الحال اهتمام الصحافة. وقد طرح على وزير الخارجية الأميركي جيمس بيكر الذي كان في أوروبا آنذاك سؤالاً بهذا الصدد. وكان معنى إجابته يتلخص في كوني أبديت ـ في اعتقاده ـ رأيي الخاص. وهذا ما كان في الواقع، الأمر الذي نوهت به في تصريحي الصحفي.

وقد اتخذ مجلس الأمن ـ كما هو معروف ـ قراره رقم ٦٧٨. ولم يمتنع عن التصويت من أعضاء مجلس الأمن الدائمين إلا الصين. وقبل ذلك كان طارق عزيز قد زار موسكو

من جديد ثم وزير الخارجية السعودي، وإني لم أتقابل مع أحد منهما مع أني كنت آنذاك في الاتحاد السوفياتي . . .

وهكذا فإن القرار ٦٧٨ حدد لصدام حسين أقصى موعد. وكان خط الرئيس السوفياتي يتلخص في استغلال هذه الفرصة الأخيرة أيضاً لدرء اندلاع الحرب. فبيلؤوسوف الذي توجه إلى بغداد كانت مهمته هي محاولة دفع صدام حسين إلى إجراء لقاء مع الممثلين الأميركيين في جنيف. وكان ذلك في وقت بدت فيه آفاق إجراء لقاء أميركي ـ عراقي معدومة نظراً لرفض صدام حسين المواعيد التي اقترحتها الولايات المتحدة ورفض الولايات المتحدة إرسال وزير الخارجية الأميركي إلى بغداد في تلك الأيام التي حددها الزعيم العراقي.

لقد تم اللقاء في جنيف وبعث الأمل في النفوس واقع المحادثات التي دامت ٧ ساعات، الأمر الذي أصبح معروفاً في الحال للصحفيين. ولكن لم يكن مكتوباً لهذه الآمال أن تتحقق. فطارق عزيز الذي لم يحمل في حقيبته الدبلوماسية أي شيء جديد وجيمس بيكر الذي وصل إلى جنيف كي يطالب مرة أخرى، على ما يبدو من تصريحاته العلنية، بانسحاب القوات العراقية دون قيد أو شرط، افترقا عائدين إلى بلديهما بخفي حنين.

ثم وصل إلى بغداد السكرتير العام للأمم المتحدة بيريس ديكويليار ولكن مفاوضاته ـ كما كان متوقعاً ـ لم تتكلل بالنجاح

هي الأخرى، وذلك لأن يديه كانتا مقيدتين بشدة بالقرارات التي اتخذها مجلس الأمن الدولي.

ومع ذلك فالرئيس السوفياتي لم يتخل عن محاولاته الرامية إلى درء الحرب. فقبل حوالي أسبوع من انتهاء مدة الانذار الذي وجهه مجلس الأمن الدولي بقراره، اتصل ميخائيل غورباتشوف بجورج بوش هاتفياً وأخبره باستعداده لارسال مبعوثه من جديد إلى بغداد. أما تفاصيل ما يسمى «بالرزمة غير المرئية» التي سبق عرضها والتي استهدفت إجبار صدام حسين على سحب قواته من الكويت دون اللجوء إلى استعمال القوة المسلحة ضده، فقد أرسلت في وقت واحد إلى سفارتنا في واشنطن. وأخبر بوش غورباتشوف هاتفياً بأنه سيستدعي السفير السوفياتي بسميرتنيخ لمقابلته حالاً.

ومع أن بوش أعلن عن رده الايجابي على مقترحات غورباتشوف في خطاب ألقاه في الراديو إلا أن السفير السوفياتي استدعي من جديد بعد عدة ساعات وأخبر بأن الولايات المتحدة لا تعارض إيفاد الممثل السوفياتي إلى بغداد، على أن تقتصر مهمته على مطالبة صدام حسين مرة أخرى بالخروج من الكويت.

في الساعة الثانية و٤٥ دقيقة من صباح يوم ١٧ كانون الثاني (يناير) استيقظت على جرس الهاتف. وقد قال لي غورباتشوف إن يازوف وبسميرتنيخ وكريوتشكوف في طريقهم

إلى الكرملين. فتعال أنت أيضاً. ثم أوضح قائلاً: إن وزير الخارجية الأميركي اتصل هاتفياً قبل عدة دقائق بوزير الخارجية السوفياتي في بيته وأبلغه بأن العمليات الحربية ستبدأ بعد دقائق قليلة. وقد طلب ميخائيل غورباتشوف إبلاغ جورج بوش على وجه السرعة برجائه أن يرجىء بدايتها بعض الوقت من أجل حمل العراق على إصدار بيان يعلن فيه عن استعداده لسحب قواته من الكويت. فرد جيمس بيكر على الكسندر بسميرتنيخ بأن العمليات الحربية قد بدأت وأن الصواريخ والقنابل تتفجر على أرض العراق والكويت.

القسم الرابع

بداية العمليات الحربية

بدأت الحرب كما كان متوقعاً بتوجيه ضربات جوية قوية. فقد انهالت على مطارات العراق ومنظوماته الرادارية في البداية الصواريخ التي أطلقت من السفن الأميركية الموجودة في مياه الخليج العربي ثم جاء دور موجات القاذفات ومن ضمنها طائرات «ستيلس» التي جرى حشدها هناك قبل ذلك خصيصاً.

يبدو لي أن واشنطن قامت بعملية واسعة لتضليل العراق. فقد تكلم المسؤولون وكبار الضباط الأميركيين عشية ذلك في تصريحاتهم «المهدئة» حول أن قوات الائتلاف لن تكون على أهبة الاستعداد كلياً لبدء العملية الحربية إلا في نهاية شهر كانون الثاني (يناير). ولا نستبعد أيضاً أن أخباراً معدة خصيصاً جرى دسها لبغداد وكذلك للبلدان العربية الأخرى عبر «أعوانها».

وعلى أي حال فقد تسنى على ما يبدو تحقيق المباغتة التكتيكية في توجيه الضربة إلى العراق. واعتقد أن صدام

حسين ظل حتى اللحظة الأخيرة ينطلق من أن «القوات المتعددة الجنسيات» لن تقدم مع ذلك على بدء العمليات الحربية. وربما كان هذا الخطأ هو الخطأ القاتل من بين أخطائه.

فقد روي لي أثناء زيارتي الأخيرة إلى بغداد التي سيأتي الحديث عنها أن صدام حسين لاحظ أثر تلقيه اقتراح الرئيس بوش الداعي إلى أن يقوم وزيرا الخارجية الأميركي والعراقي بتبادل الزيارات لاحظ مخاطباً أعوانه: ألم أقل لكم أن الاتحاد السوفياتي يقبل على إفزاعنا بحتمية الضربة فالأحداث تجري حسب سيناريو مغاير.

ولكنها لم تجر حسب سيناريو آخر. ففي الساعات والأيام الأولى من الحرب تملكت الولايات المتحدة وبلدان الائتلاف الأخرى نشوة بأنها تمكنت من التدمير التام لجميع منظومات الادارة والاتصالات الالكترونية وجميع المطارات العراقية وتدمير الجزء الأكبر من الطيران العراقي على الأرض بل وجرى وضع ضرب من التقديرات التي تقول بأن ٨٠ بالمئة من القدرة العسكرية العراقية دمرت في غضون الأيام الأولى من الحرب في الخليج العربي. ولكنهم سرعان ما تخلوا عن هذه التقديرات. فقد أخذ العراق «يكشر عن أنيابه» وظهرت أولى الخسائر في قوات الائتلاف الجوية الأمر الذي استقبل بحساسية بالغة واستمر وجود الجزء الأكبر من الوحدات الصاروخية التي

استعملت بما في ذلك لتوجيه الضربات إلى إسرائيل والسعودية.

وكان العراق يولي أهمية خاصة لقصف إسرائيل بالصواريخ. فقد بدا واضحاً أن بغداد تريد جرها إلى الحرب والتوصل بذلك إلى تغيير تشكيلة القوى المتجابهة كلياً. وقد عول صدام حسين بالتأكيد على أن البلدان العربية المشاركة في الائتلاف المناهض للعراق سوف تضطر إلى تغيير الجبهة التي تحارب فيها.

وقد ثارت في إسرائيل فعلاً موجة من الاستياء وبدأ الرأي العام يمارس الضغط على الحكومة بهدف دفعها إلى الرد المسلح على الاستفزازات العراقية. وقد تطلب الأمر جهوداً كبيرة لوقف القيادة الاسرائيلية. وقد قامت بذلك الولايات المتحدة بالدرجة الرئيسية. أما الاتحاد السوفياتي فقد أدان بشكل لا يقبل التأويل قصف إسرائيل والسعودية.

في حين أن حدة الحرب باتت تشتد بسرعة. فقد تكثف القصف الجوي والصاروخي للعراق والقوات العراقية في الكويت. وكان الهدف الرئيسي في غضون ذلك يتمثل في المنشآت والأهداف العسكرية والمؤسسات الصناعية التي تقوم بتلبية مستلزمات الجيش العراقي. وأولت الولايات المتحدة اهتماماً خاصاً لضرب المفاعلات النووية والمصانع الكيميائية

والمراكز التي يمكن فيها صنع الأسلحة الجرثومية. وبطبيعة الحال فقد ظهرت حاجة إلى المعلومات التي يمكنها أن تبين مدى تأثير هذه المشاريع العراقية بعد تدميرها على البلدان المتاخمة ومن ضمنها الاتحاد السوفياتي. وقد قام الرئيس السوفياتي بتكليف العلماء والخدمات الفنية بهذا الخصوص. وجرى ليل نهار فرض الرقابة على المناطق السوفياتية الجنوبية التي تبعد عن العراق مسافة ٢٥٠ ـ ٣٠٠ كيلومتر.

في هذه الأثناء شكل في موسكو فريق عمل أطلق عليه «فريق الأزمات» الذي ضم في عضويته وزراء الخارجية والدفاع والداخلية ورئيس لجنة أمن الدولة ومساعد الرئيس للشؤون الدولية السياسية وأنا. وشارك في أعمال الفريق مساعد الرئيس لشؤون الصحافة ايغناتينكو ونائب وزير الخارجية بيلونوغوف. وبوسعي أن أقول بكل ثقة أن «فريق الأزمات» ضم في عضويته أناساً يفهمون بعضهم البعض دون كلام.

في اليوم الثالث من الحرب، في ١٩ كانون الثاني (يناير) جمع الرئيس السوفياتي «فريق الأزمات» واتخذ قراراً بطرح مبادرة سياسية أخرى تهدف إلى وقف الحرب في منطقة الخليج العربي. وجرى الايعاز إلى السفير السوفياتي في العراق بأن يحاول الاتصال فوراً بصدام حسين أو أن ينقل إليه عبر وزير الخارجية طارق عزيز النص التالي: إذا تلقينا شخصياً ودون علم

أحد وعداً بأن العراق على استعداد لسحب قواته من الكويت دون قيد أو شرط فسوف نتوجه إلى الولايات المتحدة باقتراح لوقف إطلاق النار. وكان الرئيس غورباتشوف قد قام بشكل تمهيدي (وأريد هنا أن أشدد على ذلك بالأخص بالنظر للاتهامات التي أطلقها أولئك الذين ادعوا أما عن عدم معرفة بحقيقة الأمور أو تجاهلاً لها بأننا نتحرك «من وراء ظهر واشنطن») بإبلاغ القيادة الأميركية بالجهود التي يبذلها الاتحاد السوفياتي.

بغداد لزمت الصمت مدة يومين ثم أجابت بالرفض معلنة في الراديو أن مثل هذه الاقتراحات «يجب أن توجه إلى الرئيس بوش».

بينما في هذا الحين بدأت تظهر نبرات جديدة في العمليات الحربية. فقد راح مجال القصف الجوي والصاروخي يشمل أكثر فأكثر السكان المدنيين في بغداد والمدن الأخرى. وخربت جميع المحطات الكهربائية في البلاد. الأمر الذي أدى إلى توقف وحدات تنقية الماء والمضخات المستعملة في سحب مياه المجاري مما أنذر بأخطر النتائج. وتمّت الاشارة في الوقت نفسه إلى أن منطق العمليات الحربية وطابع التحركات العسكرية يشكلان تهديداً يتعدى الصلاحيات التي نصت عليها هذه القرارات.

السفرة الثالثة الى بغداد

كان الوصول إلى بغداد هذه المرة أصعب بما لا يقارن. فقد ارتأينا أن أفضل الطرق هي عبر إيران. في غضون ذلك لم نراع فقط الاعتبارات المتعلقة باحتمال تلقي مساعدة السلطات الايرانية في تنظيم السفرة لغاية الحدود العراقية. فقد تعين في مطار طهران إجراء مقابلة مع نائب وزير الخارجية الايراني علماً أنها جرت إثر إعلان إيران عن مبادراتها السلمية. وكان نائب وزير الخارجية السوفياتي بيلونوغوف قد زار طهران قبل عدة أيام من ذلك وكانت محادثاته مفيدة جداً ولهذا فقد كان بودي أن أطلع على آخر الانطباعات والأفكار الايرانية عن مواقف القيادة العراقية قبل توجهي إلى بغداد. وقد تم اللقاء وبرر الآمال المعقودة عليه.

وقد سمحت السلطات الايرانية بتحليق طائرتنا من طهران إلى بختران (كرمان شاه سابقاً) ومن هناك وفرت لنا مشكورة النقل البري والحراسة الأمر الذي تمتعنا به خلال ٤ ساعات من طريقنا حتى الحدود.

وكان بانتظارنا عند الحدود العراقية نائب وزير الخارجية العراقي فيصل والسفير السوفياتي بوسوفالوك. كان الوقت متأخراً ولهذا فقد انطلقنا إلى بغداد بسرعة كبيرة. وكان ضوء المصابيح التي تشعله بانتظام هذه أو تلك من السيارات السائرة في القافلة

المتلاحقة يزيح ستار الظلام الدامس عن قارعة الطريق. وما أن وصلنا بمرور ساعتين ونصف الساعة إلى ضواحي بغداد حتى انفرط عقد القافلة حالاً. فالسيارات التي استقليناها ـ وقد تأكدت بأن ذلك يميز جميع سيارات القيادة العراقية ـ كانت ملطخة بالطين لغرض التمويه. ولكن الفكرة التي خطرت لي في هذه الأثناء هي ألا تميزهذه الأطيان بالذات هذه السيارات عن غيرها وتفضح شخصية أولئك الذين يستقلونها؟

نزلنا في فندق «الرشيد» حيث وصلناه في الساعة الحادية عشرة مساء. وقيل لنا إن هذا هو أفضل مكان آمن في العاصمة العراقية بالنظر لأن الصحفيين الأجانب وبالأخص بيتر ارنيت من الشركة الاميركية سي. ان. ان الذي ذاعت شهرته في أرجاء العالم ينزلون في هذا الفندق، لم تكن هناك أضواء والمصعد عاطل واشتعل في الغرفة الفخمة مصباح نفطي خصصت به عن زملائي الأخرين. . .

كان الهدوء سائداً. أما الغارات التي كانت تبدأ عادة في هذا الوقت فقد تأخرت لسبب مجهول الأمر الذي جعل الصحفيين الذين تقاطروا «للسمر» يمزحون قائلين: هلا بقيت وقتاً أطول فقد نتفادى الغارات. ولكنهم على ما يقال جلبوا الحسد بقولهم هذا. فبعد ساعة واحدة ارتفع صوت صفارات الانذار الجوي. وشهدت الليلتان اللتان قضيناهما في بغداد،

شهدتا باعتراف الكثير مما قدر لي مقابلتهم أشرس قصف للمدينة.

في وقت متأخر من الليل بلّغت بأن اللقاء مع طارق عزيز سوف يجري في الساعة الحادية عشرة صباحاً. وأنه اختار مقر سفيرنا مكاناً للقاء. ولم نكد نبدأ المحادثات حتى انهالت الاتهامات الموجهة إلى الاتحاد السوفياتي وسياسته التي كادت «أن تعطي الضوء الأخضر» لحرب الأمم المتحدة ضد العراق».

اقترحت على طارق أن نتمشى معه بعض الوقت في الحديقة. وقد ظل الحديث حاد اللهجة حتى بعد أن انفردنا. وخطر لي أن طارق يفعل ذلك من أجل أن يكشف ردود فعلي ومدى متانة تعاوننا مع الولايات المتحدة والبلدان الأخرى في «الائتلاف المتعدد الجنسيات»، وما «هي الاحتياطات» التي هي في حوزة العراق على هذا الصعيد. وإني وثقت من فكرة الحديث معي الذي كان يهدف إلى «سبر» الأهداف أثناء اللقاء مع صدام حسين الذي بدأ هو الآخر من عبارات اللوم إلى الاتحاد السوفياتي ولكن الحديث حول هذا اللقاء سيأتي في وقت لاحق.

فأتحت طارق عزيز بأن العراق يرتكب الغلطة تلو الغلطة ويحاول صيانة ما لا يصان ويدفع نفسه في ذلك المأزق الذي هيهات أن يمكنه الخروج منه. وسقت له كمثال الخبر الذي أثار

فوران العالم بأسره والذي يقول بأن السلطات أعلنت عن نيتها في إسكان الأسرى من الطيارين الأميركيين وممثلي البلدان الأخرى المشاركة في القوات المتعددة الجنسيات في المنشآت الاستراتيجية منتهكاً بذلك معاهدة جنيف كلياً. ورداً على ذلك استأنف طارق عزيز من جديد اتهاماته لنا. وعندها قلت له: إننا لم نصل إلى هنا لسماع كل ذلك. وإذا كان هذا ما ينتظرني من جانب صدام فقد أكون في غنى عن مقابلته؟

اللقاء مع صدام حسين جرى مساء اليوم نفسه. ونحن كنا على استعداد لأن يقودنا إلى الملجأ أو ينقلونا إلى خارج بغداد بعيداً. ولكن كل شيء كان أقرب إلى الحياة العادية. نقلونا إلى إحدى دور الضيافة في وسط المدينة. وقد ظننا في البداية أن هذا هو «مكان تجمع» ومن هنا يبدأ «الطريق تحت الأرض». ولكن إلى هذه الدار بالضبط التي أضاءتها المصابيح الكهربائية بالنظر لأن مولدة صغيرة بدأت على غرة منا عملها، وصل صدام حسين مع كافة أعضاء القيادة العراقية. ولقد جلس قرب إحدى المدافىء النفطية وخلع معطفه العسكري ونزع كالعادة حزامه الذي يتدلى منه جراب مسدسه. وقد فطنت هنا إلى أنه نحف. فهو فقد ١٥ ـ ٢٠ كيلوغراماً منذ لقائنا الأخير. ولكن مظهره دل على الهدوء وعلى قدر كاف من الاعتداد.

وكما قدمت فقد استهل حديثه بتوجيه اللوم إلى الاتحاد السوفياتي وكذلك ببعض العبارات التي يمكن اعتبارها بمثابة

محاولة لاظهار «رسوخ» الموقف العراقي. وكان الطابع الذي ميز أقوال صدام حسين يرجع بالأحرى إلى حضور أعوانه. وكان انطباعي أنه يخاطبهم أكثر مما يخاطبني.

قلت بأني أود الانفراد به وعندما انفردنا أكدت بما لا يقبل الشك: ان الأميركيين يميلون بكل حزم إلى بدء عملية برية واسعة الأبعاد يتم خلالها تدمير حشود القوات العراقية في الكويت. سيتم تدميرها أتفهمني؟ وقلت أن السياسة هي فن الممكن. واقترحت عليه بإيعاز من الرئيس السوفياتي الأمر التالي: الاعلان عن سحب القوات من الكويت على أن يحدد في هذا الاعلان أقرب المواعيد لهذا الانسحاب. وان هذا الانسحاب يجب أن يكون تاماً وأكيداً.

وهنا حدث الانقلاب الحقيقي لأول مرة. فقد راح صدام حسين يطرح الأسئلة التي تخص جوهر القضية، هل يمكنني أن أثق بأنهم لن «يطلقون النار في ظهور الجنود الخارجين من الكويت» وهل سيتم وقف الغارات على العراق بعد انسحاب قواته؟ وهل سيتم إلغاء العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة في قراراتها ضد العراق بعد رفضه الانسحاب من الكويت بالنظر لانسحاب القوات من هناك؟ في ذات الوقت بدأ صدام حسين يتلمس إمكانية تغيير طبيعة النظام في الكويت. فأجبته بأن الحديث يجب أن يدور حول استعادة الوضع الذي كان قبل الثاني من آب (أغسطس).

وسألني صدام حسين هل يمكنني البقاء فترة أطول في العراق لأنه كان عليه أن يستشير زملاءه في القيادة. فأجبته خوفاً من تأخير الجواب بأني لا أستطيع البقاء فترة أطول لأن عليَّ أن أسافر في الساعة السادسة صباحاً إلى الحدود الايرانية. فوافقني صدام بأنه يستطيع فعلاً جمع القيادة العراقية هذه الليلة وأعلن: سيحمل طارق عزيز الجواب المقتضب إلى السفارة السوفياتية (فالاتصالات الهاتفية كانت مقطوعة هي الأخرى بفعل الغارات) بعد عدة ساعات وأن الممثل الشخصي للرئيس العراقي سوف يتجه إلى موسكو لمواصلة الاتصالات.

ثم استمع صدام بصمت لملاحظاتي حول أن الزمن لا يرحم وضرورة تقليص الوقت إلى أقصى قدر ممكن. ولم يرد هو أيضاً على ندائي الداعي إلى الرد إيجابياً حتى في الاجابة العراقية المقتضبة حول انسحاب القوات الأكيد من الكويت وإلغاء فكرة مواصلة ضرب السكان المدنيين في إسرائيل بالنظر لأن الخطوات العسكرية ضد العراق في هذه الحالة لن تتوقف إلى جانب الأمور الأخرى.

بعد ساعتين كنا نجلس في الدور الأول من سفارتنا. اجتمع في الغرفة الكثير من أولئك السوفياتيين الثلاثة عشر الذين كانوا في تلك الأيام في بغداد. فهؤلاء الرجال البواسل تحملوا دون أية تبجحات ومن غير تشكي في الوقت ذاته كل مشقات الحياة في بغداد، انعدام الكهرباء وماء الشرب والعيش في

مساكن باردة وغير مدفأة (الجو في بغداد بارد في هذا الوقت والجليد بحلول الصباح يكسو برك الماء). وإضافة إلى كل ذلك لوحظ نقص متزايد في البنزين، فقد جرى جمعه نقطة فنقطة لا من أجل التدفئة ولا الاضاءة وإنما لعمل المولدة اللازمة للحفاظ على الاتصال مع موسكو. علماً أن جميع هؤلاء الثلاثة عشر شخصاً الذين تطوعوا للبقاء ومواصلة النهوض بواجباتهم في مثل هذه الظروف كانوا يقضون معظم وقتهم في أنبوب معدني قطره متران هيل عليه التراب وأسند بالقضبان. ولا يمكن بالطبع تسمية الأنبوب ملجأ إلا بشكل مجازي ولكن كما قال لي أصدقائي البغداديون إنه كان يحميهم بمتانة من الشظايا التي تساقطت بوفرة من السماء أثناء ضرب الطائرات المغيرة على بغداد.

وكان السفير فيكتور بوسوفالوك زعيماً حقيقياً لهذه الأسرة العاملة الصغيرة. والأمر ليس في العمل وحده. فقد رأيت في الأنبوب ـ الملجأ قيثارة يعزف هو عليها ويغني بمهارة أغاني ألفها بنفسه.

إلى الغرفة التي اتخذناها مقراً لنا في الدور الأول من السفارة وصل طارق عزيز في الساعة الثانية من ليل يوم ١٣ شباط (فبراير). وجلب معه بياناً خطياً جاء فيه: إن القيادة العراقية تعكف بجد على دراسة الأفكار التي بسطها ممثل الرئيس السوفياتي ولسوف تجيب عنها في القريب العاجل. وذكر

طارق عزيز بأنه سيتوجه إلى موسكو في يوم الأحد.

وبعد أن قطعنا طريق العودة الذي استغرق عموماً ١٤ ساعة وعدنا إلى موسكو استقبلنا في المطار فريق كبير من الصحفيين السوفيات والأجانب. ومن دون أن أعرف بأن مساعد الرئيس لشؤون الصحافة ايغناتينكو قد استشهد في البريفينغ الذي نظم ذلك اليوم ـ «إن مؤشرات واعدة ظهرت» ـ بالبرقية التي أرسلتها من بغداد تفوهت بالعبارة ذاتها رداً على سؤال المراسلين. وقد قامت وزارة الخارجية السوفياتية برقياً بإبلاغ عدد كامل من الدول بنتائج الزيارة إلى بغداد.

خطة غورباتشوف

في الخامس عشر من الشهر نفسه أي قبل وصول طارق عزيز إلى موسكو بيومين قطعت إذاعة بغداد برامجها لتذيع بيان مجلس قيادة الثورة. وتحدث هذا البيان عن استعداد العراق للامتثال إلى قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٦٦٠ الذي طالب بسحب القوات العراقية من الكويت بلا قيد أو شرط. بيد أن هذا القسم من البيان قد أحيط بعدد كبير من الشعارات التقليدية الدعائية وبالدعوات والوعود «بمواصلة الحرب حتى النهاية المظفرة» وبقائمة من المسائل الواجب حلها لاحقاً، المسألة الفلسطينية وانسحاب القوات الأميركية ورفع العقوبات الاقتصادية وانسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة.

لم يثـر دهشتي أن البيـان الأول الـذي استهلت بـه حقـاً عملية التسويـة السياسيـة كان «منمقـاً» على نحو يحجب التفكيـر في أن العراق في سبيله إلى الاستسلام. ومـع ذلك كـان جلياً أن هذا البيان سيتلقفـه سواء الـذين لا يريـدون أن «يفلت العراق من الضـربة الحـاسمة» أو الـذين لم يصدقـوا العـراق قط. وهـذا مـا حـدث بالفعـل. فقد رفضت الـولايـات المتحـدة وحلفـاؤهـا في الائتلاف هذا البيان.

في مساء السابع عشر وصـل طارق عـزيز إلى مـوسكو على طائرة سوفياتيـة أرسلت خصيصاً إلى طهـران لتقله. وكنت مدعـواً للمشـاركة في المحـادثات سـواء التي جرت في التـاسعة صبـاحاً من اليـوم التالي بينـه وبين الكسنـدر بسميـرتنيـخ وزيـر خـارجيـة الاتحاد السوفيـاتي أو التي جرت في الحـادية عشـرة إلا ربعاً بينـه وبين الرئيس ميخائيـل غوربـاتشوف. قـال طارق عـزيز مستعـرضاً موقفه أن العراق رغم الضربات البالغـة الضراوة التي يتعـرض لها لن يقـدم على الاستسـلام. وهــو مصمم على ذلـك. ولكن لـو كـانت هناك فـرصة للسـلام المشـرف فـإن القيـادة العـراقيـة على استعداد لبذل ما تستطيعه من أجل اغتنامها.

وأدركت أن الرئيس غورباتشوف يريد أول مـا يريـد أن تقلع القيـادة العراقيـة بما لا يقبـل التـأويـل عن وضـع شـروط لسحب قـواتها. فقـال الرئيس: إن مـوقفكم يبدو متنـاقضاً جـداً. فهو من جهة خطوة هامة في التسوية السياسية لأنكم تعتـرفون بـالقرار رقم

٦٦٠ الذي يطالب كما هو معروف بالانسحاب بلا قيد أو شرط، ومن جهة إخرى يبدو هذا الموقف غير مقبول لأنكم تضعون شروطاً مسبقة للانسحاب. ولقد ذكرتم عدداً كبيراً من المسائل الهامة. وهذا واقع. وإن ربطت بشكل وثيق بسحب القوات فهذا غير مقبول وغير واقعي وسيكون سبباً لتصعيد العمليات العسكرية كحل يكاد أن يكون دون بديل.

واضطر طارق عزيز إلى الموافقة على أن قائمة المسائل، «ليست شروطاً للانسحاب» وإنما هي «بمثابة برنامج» يجب تنفيذه مستقبلاً.

وفي هذه الأثناء أبدى ميخائيل غورباتشوف ملاحظة متسائلاً: لماذا لا يذكر البيان كلمة «الكويت» في معرض الحديث عن سحب القوات؟

واقترح رئيس الاتحاد السوفياتي في رده على سؤال طرحه طارق عزيز حول مفهومنا لمسيرة عملية السلام التي من شأنها أن تؤدي إلى سلام مشرف ولائق، اقترح على القيادة العراقية التفكير فوراً في الخطة التالية: يعلن العراق عن سحب قواته كافة من الكويت (وبالتحديد من الكويت وليس الانسحاب عموماً) ويحدد في هذا الاعلان ذاته الفترة النهائية للانسحاب والتي يجب أن تكون قصيرة إلى أدنى حد. ويجب ألاَّ يُربط الانسحاب من الكويت بأية شروط ما عدا الضمانات التي تمنع

الهجوم على القوات المنسحبة من الكويت أي تمنع إطلاق النار عليها من الخلف.

وشارك في المحادثات التي جرت بين ميخائيل غورباتشوف وطارق عزيز عضو آخر في القيادة العراقية هو سعدون حمادي نائب رئيس الوزراء. قال رئيس الاتحاد السوفياتي موجهاً حديثه إليهما: إن عامل الزمن يلعب دوراً بالغ الأهمية الآن وإذا كنتما حريصين على حياة مواطني بلدكما ومصير العراق فيجب أن تتصرفا فوراً. فرد طارق عزيز وسعدون حمادي بأنهما قسم فقط من القيادة العراقية وأنهما ملزمان بإبلاغ صدام حسين بكل شيء.

وبعد هذا الحديث مباشرة اتصل رئيس الاتحاد السوفياتي هاتفياً برئيس الولايات المتحدة وبقادة عدد من بلدان أوروبا الغربية. وبعد أن أطلعهم على طابع المحادثات وعلى انطباعاته رجا ميخائيل غورباتشوف أن تؤخذ التطورات الجديدة في الحسبان أثناء تخطيط العمليات الحربية في تلك الأيام وخاصة العمليات المرهونة بالضحايا. وتشكل انطباع بأن كل ذلك قد لقي تفهماً.

وبعد المحادثات غادر طارق عزيز فوراً إلى وطنه عبر إيران.

وطالت ساعات وأيام القلق في انتظار نبأ من بغداد. في

تلك الآونة تسرب من الدوائر الرسمية الأميركية إلى الصحافة خبر مفاده أن رئيس الاتحاد السوفياتي رجا عدم شن العمليات البرية الواسعة النطاق حتى تنتهي المحادثات مع العراق على الأقل.

بعد ذلك أقلع طارق عزيز من طهران إلى موسكو في الحادي والعشرين من شباط (فبراير) مساء في الساعة الثامنة والربع. هذا بينما كان العالم يحلل خطاب صدام حسين الذي كانت قد أذاعته لتوها الاذاعة العراقية، الخطاب المتناقض المشحون بالانفعالات وبتكرار كل مجموعة الاتهامات والتهديدات السابقة. وبدا لي أن جملة التصريحات الدعائية كانت موجهة بالطبع «للاستهلاك الداخلي» ـ وكما افترضت ـ من أجل «تمهيد الطريق» لاتخاذ قرار جذري. ولكن الافتراضات لا تزيد عن كونها افتراضات. وهكذا انتظرنا بفارغ الصبر بدء المفاوضات مع طارق عزيز.

وهكذا لم يغادر ميخائيل غورباتشوف الكرملين حيث جرى نقل طارق عزيز والوفد المرافق له من المطار مباشرة إلى الكرملين في الساعة الثانية عشرة ليلاً. وبدأ حديث استمر حتى الساعة الثالثة من صباح الثاني والعشرين من شباط (فبراير). وتسنى مبدئياً ـ في التناول الأول ـ بحث عدد من النقاط كان أهمها أن العراق يوافق على قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٦٦٠ وأنه على استعداد لسحب كافة قواته من الكويت. ومع

ذلك أكد العراقيون أنهم لن يستطيعوا تنفيذ ذلك في فترة قصيرة وفسروا ذلك بأنه يتعين سحب جيش كبير بينما الطرق والجسور مدمرة وعينوا في البداية فترة ٣ ـ ٤ شهور ثم اختصروها إلى «أقصر فترة» إلى ٦ أسابيع.

ورد طارق عزيز على الملاحظة القائلة بأنهم أدخلوا القوات هذه في ساعات معدودة قائلاً: لقد أدخلنا فرقتين وحشدنا في الكويت على مدى سبعة شهور حوالي ٥٠٠ ألف فرد مع وحدات الامداد والتموين والمستودعات والمعدات. وقال ميخائيل غورباتشوف إن من الممكن بل من الضروري اختصار هذه الفترة حتى الحد الأدنى.

وهكذا لم يكن قد تم بعد تنسيق العديد من النقاط الهامة وتدقيقها وتصويبها. ولذا تعين مواصلة المحادثات في صباح اليوم ذاته. وحتى على ذلك الشكل الذي اقترحه العراقيون في البداية تلخص الرئيسي في امتثال العراق لمطالبة المجتمع الدولي بانسحاب القوات التام من الكويت.

ولأن الوقت كان محدوداً للغاية ـ بالاضافة إلى أن سلك الصحفيين في موسكو كان قد هب وتلهف على أي خبر ـ أجرى ف. ايغناتينكو لقاء صحفياً في الساعة الثالثة والنصف صباحاً. واكتظ المركز الصحافي بكافة مراسلي شركات التلفزيون الكبيرة والوكالات والصحف العالمية الذين انتظروا على أحر من الجمر

ظهور مساعد رئيس الاتحاد السوفياتي لشؤون الصحافة والذي أعلن النقاط التي جرى بحثها وقال إن العمل فيها مستمر ونأمل في إحراز المزيد من التقدم. وقابل الصحفيون تصريح ف. ايغناتينكو بموجة من التصفيق وهرج الجميع إلى إرسال البرقيات إلى وسائل الاعلام العام. وهكذا ازداد التفاؤل والأمل.

وبعد الساعة الثالثة صباحاً اتصل ميخائيل غورباتشوف هاتفياً بالرئيس بوش واستمر الحديث بينهما ساعة ونصف الساعة. وقد حضرت أثناء هذا الاتصال. وقد عبر بوش عن شكره على الجهود التي يبذلها رئيس الاتحاد السوفياتي. ومع ذلك أعرب الرئيس الأميركي عن شكه في إمكانية اغتنام فرصة تغير موقف العراق. وهنا أكد بوش أن ما يقلقه خاصة هو مصير الأسرى الذين يعيشون ظروفاً بالغة القسوة وكذلك عدم إمكانية «التغاضي عن الخسائر المادية الفادحة» التي ألحقها العدوان العراقي بالكويت. كما عبر الرئيس الأميركي عن عدم رضاه عن طول فترة سحب القوات العراقية.

ولقد استشهد ميخائيل غورباتشوف بتأكيدات طارق عزيز أن القيادة العراقية قد اتخذت قرار الانسحاب وستنفذه. وفي الختام أكد ميخائيل غورباتشوف وجورج بوش عزمهما على مواصلة العمل معاً من أجل قضية السلام. وفي الحديث جرى تأكيد النهج الرامي إلى تنمية التعاون السوفياتي الأميركي البالغ

الأهمية بالنسبة للمجتمع الدولي. واتفق الرئيسان على أن يكونا على اتصال دائم.

وقال ميخائيل غورباتشوف لنا حالما وضع سماعة الهاتف : أعطوا اهتماماً خاصاً في المحادثات التي ستبدأ بمشاركتكم بعد بضع ساعات للمسائل التي طرحها جورج بوش.

وفعلاً بدأ بعد بضع ساعات ـ إذ لم يتبق عملياً وقت للنوم ـ في مبنى الاستقبالات التابع لوزارة الخارجية السوفياتية لقاء بحضوري وحضور الكسندر بسميرتنيخ وأ. بيلونوغوف وطارق عزيز والوفد الذي رافقه. وكانت عملية تقريب المواقف صعبة للغاية. فاستغرقت حوالي ساعة مناقشة مسألة واحدة ـ جرت بضغط من جانبنا ـ هي موعد إطلاق سراح الأسرى الأميركيين وغيرهم. وتذرع العراقيون بصعوبات تقنية الطابع. ولكن نظراً لاصرارنا اتفقنا في خاتمة المطاف على تنفيذ ذلك خلال ثلاثة أيام بعد توقف العمليات العسكرية.

ودارت مناقشات صعبة حول فترة سحب القوات. وأصر العراقيون على سحبها خلال ٦ أسابيع مؤكدين أن هذه المسألة مسألة فنية بحتة بالنسبة لهم. وإذ أخذ في الاعتبار اقتراب موسم الرياح والعواصف غير الملائم بالنسبة للعمليات العسكرية (ورأى الأميركيون أن العراق يمدّد الفترة عمداً تحسباً لهذا

الظرف) اقترحنا بالنسبة لمدينة الكويت وحدها سحب القوات العراقية منها في الأيام الأربعة الأولى لا أكثر.

ومناقشات المسائل المتعلقة بوقف سريان مفعول قرارات مجلس الأمن الدولي التي جرى اتخاذها بعد القرار رقم ٦٦٠ والتي تنص على عقوبات ضد العراق بما فيها دفع التعويضات عن الخسائر التي ألحقها بالكويت، قد شهدت جدلاً طويلاً وتعنتاً تاماً. فلقد ركز طارق عزيز على أن هذه القرارات اتخذت بعد أن رفض العراق تنفيذ القرار رقم ٦٦٠. وما دام قد وافق الآن على تنفيذ كافة بنود هذا القرار فوراً فإن القرارات الأخرى قد فقدت صبغتها القانونية.

لم نوافق على طرح المسألة بهذا الشكل ولكن طارق عزيز قال إن لديه «تفويضاً صارماً» لا يستطيع تجاوز أطره. وفسرنا له أن هذه المسألة من شأن مجلس الأمن الدولي ـ واتخاذ قرار بصددها من حقه وحده ـ ولا يسعنا إلا التحدث عن موقفنا.

ولدت في خاتمة المطاف ٦ نقاط (نشرتها الصحافة) أهمها ما يلي: «وافق العراق على تنفيذ القرار رقم ٦٦٠ أي وافق على سحب قواته من الكويت فوراً وبلا قيد أو شرط وإعادتها إلى مواقعها التي كانت تشغلها في الأول من آب (أغسطس) ١٩٩٠».

ورغم كل اعتراضاتنا والمحاولات التي بذلناها لاقناعه

أصر طارق عزيز على بقاء النقطة التالية: «بعد اختتام انسحاب القوات من الكويت تنتفي الأسباب التي أدت إلى صدور قرارات مجلس الأمن الدولي الأخرى وبحكم ذلك تعتبر لاغية القرارات المذكورة».

بالاضافة إلى ذلك قال طارق عزيز إن الأمر يتطلب موافقة القيادة العراقية بأسرها وفي المقام الأول موافقة صدام حسين غير أنه لم يشك في رد إيجابي. ومع ذلك اقترح طارق عزيز بهذا الصدد الاقلاع فوراً وبصحبتي إلى بغداد للقاء صدام حسين. ولادراكنا أن الوقت ضيق جداً استبعدنا هذا الاقتراح ورأينا أن من الممكن الاتصال فوراً من موسكو بالقيادة العراقية.

ولكن كيف يمكن ذلك؟ فالهاتف لا يعمل، قال طارق عزيز متسائلاً، فبعد قصف محطة الاتصال التابعة لوزارة الخارجية العراقية انقطع اتصال السفارة العراقية في موسكو مع بغداد، واقترحنا على طارق عزيز استخدام أجهزتنا اللاسلكية وإرسال برقية إلى بغداد عبر السفارة السوفياتية وحتى بالشفرة العراقية. وهكذا جرى بهذه الطريقة إبلاغ القيادة العراقية في بغداد بالنقاط الست.

الفصل الاخير من «الدراما»

قبل ذلك وجه الرئيس بوش في السابعة صباحاً بتوقيت موسكو إنذاراً إلى العراق بسحب قواته من أراضي الكويت في

بحـــر أسبـوع على أن تسحب القــوات من مـدينـــة الكـويت في غضـون ٤٨ ساعـة وأن يبدأ الانسحـاب قبل الثـانية عشـرة ظهـراً حسب تـوقيت نيويـورك يـوم السبت ٢٣ شبـاط (فبـرايـر) وهكـذا وضع الأصبع على الزناد.

هـذا بينما تـطورت الأحـداث على النحـو التـالي: في ٢٣ شبـاط (فبرايـر) في الساعـة الثانيـة ليلاً حسب تـوقيت مـوسكـو، وافق ذلك في واشنطن ٢٢ شباط (فبرايـر)، وصل رد إيجـابي من صدام حسين على برقية طارق عزيز.

في ٢٣ شبـاط (فبرايـر) في الساعـة الثانيـة عشـرة وخمس دقـائق التقى طارق عزيز بالصحفيين في المركز الصحـافي التابـع لوزارة الخـارجية السـوفياتيـة حيث أعلن قـرار القيـادة العـراقيـة بسحب قـواتها فـوراً وبلا قيـد أو شرط من الكـويت ولكنـه استشهـد هنـا «بمجمـل» الاجـراءات التي صيغت في مـوسكـو. واختتم طـارق عزيز كلمته بأن قرار الانسحاب التـام وغير المشـروط من الكويت يعتبر رداً على طلب الرئيس بـوش. ثم غادر طـارق عزيـز الاتحاد السوفياتي فوراً.

وقد بدأ رئيس الاتحاد السوفيـاتي على الفور عمـلاً سياسيـاً لم يسبق لـه نظير من حيث الكثافـة. في البدايـة بعث ببـرقيـات إلى قـادة كـافـة البلدان الأعضـاء في مجلس الأمن الـدولي. ولم يكتف ميخائيل غورباتشوف بذلـك. فلقد تحـدث هاتفيـاً مع كـل

من ج. ميجور رئيس وزراء بريطانيا وج. انـدريوني رئيس وزراء ايطاليا وفرانسوا ميتران رئيس فرنسا والرئيس المصري حسني مبارك والرئيس السوري حافظ الأسد والمستشار الالماني هيلموت كول وت. كايفو رئيس وزراء اليابان والرئيس الايراني هاشمي رفسنجاني كما تحدث مرة أخرى مع جورج بوش رئيس الولايات المتحدة. وبالطبع كان لكل حديث من هذه الأحاديث مضمونه ونبرته وحتى شكله الخاص. وأكد ميخائيل غورباتشوف التالي:

- بعد موافقة القيادة العراقية على انسحاب القوات من الكويت بلا قيد أو شرط اكتسبت الحالة طابعاً جديداً مبدئياً، وفي هذا الظرف لا يجدر تجاهل التطور الكبير الذي حدث.

- كان من المستحيل تحقيق هذا الانعطاف بدون الجهود الجماعية التي بذلها المجتمع الدولي بأسره والتي وجهت بأشكال مختلفة ضد عدوان العراق.

- موافقة العراق غير المشروطة قد فتحت الطريق نحو تحويل النزاع من منطقة الخليج إلى مجرى التسوية السياسية.

وقد طرح على الرئيس بوش وغيره من الرؤساء اقتراح بدعوة مجلس الأمن الدولي كي يجمع في وحدة متكاملة الخطة التي قبلها العراق وطلبات الولايات المتحدة. وجرى في الأحاديث تأكيد أن الاختلافات بين الصيغ التي وافق عليها

العراق والصيغ التي يقترحها عدد من الدول الأخرى غير كبيرة ومن الممكن كما يتصور تسويتها ضمن أطر مجلس الأمن الدولي في غضون يوم أو يومين.

. . . في فجر ٢٤ شباط (فبراير) أعلن رئيس الولايات المتحدة أنه أصدر أمراً ببدء الهجوم البري . . .

في الدقيقة الأربعين بعد منتصف الليل في ٢٦ شباط (فبراير) وصل طارق عزيز إلى السفارة السوفياتية في بغداد. ورجا أن ترسل فوراً إلى القيادة السوفياتية رسالة من صدام حسين أعلن فيها بدء انسحاب القوات العراقية من الكويت وأكد أن الجلاء سيتم في أقصر فترة ممكنة. ورجا الرئيس العراقي طرح مسألة وقف إطلاق النار بأقصى سرعة ممكنة.

بعث سفيرنا في العراق برقية إلى موسكو. وفي الليلة ذاتها كلف رئيس الاتحاد السوفياتي السفارة السوفياتية في واشنطن بإعلام الادارة الأميركية بهذه البرقية فوراً.

وفي ليلة الخامس والعشرين على السادس والعشرين من شباط (فبراير) حسب توقيت نيويورك (نهار السادس والعشرين من شباط (فبراير) حسب توقيت موسكو) انعقد مجلس الأمن الدولي بطلب من الاتحاد السوفياتي. وظهر ذلك اليوم أعلن العراق أن سحب القوات سيجري خلال ذلك اليوم. بعد ذلك عقد ف. ايغناتينكو لقاء صحفياً. ولقد أجاب عن سؤال

المـراسلين الغربيين التـالي: لماذا لم «يكشفـ» العـراق من قبـل في موسكو عن كـافة «الاحتيـاطيات» لـديه؟ قـال ايغناتينكـو: في المحادثات مع طارق عزيز في موسكو رجوناه بـإلحاح أن «يـطرح على المـائدة» كـل ما يمكن. ويبـدو أن الأمر التقليـدي بـالنسبـة للعـراق قـد لعب دوره مـرة أخرى، صـدام حسين هـو وحـده صاحب القرار.

وفي ليلة ٢٦ ـ ٢٧ شبـاط (فبرايـر) استدعي سفيـر الاتحـاد السـوفيـاتي في بغـداد إلى وزارة الخـارجيـة العـراقيـة حيث كـان بانتظاره عضـوا القيادة، سعـدون حمادي وطـارق عزيـز. وتقدمـا إلى سفيـرنا بـرجاء أن يبلغ فـوراً عبر القنـوات السوفيـاتيـة الأمين العـام لهيئة الأمم المتحـدة ورئيس مجلس الأمن الدولي بتصـريح وزير الخارجيـة العراقيـة بأن الحكـومة العـراقية تؤكـد مرة أخـرى قبولها للقرار رقم ٦٦٠، وأن انسحاب كـافة القـوات العراقيـة من الكـويت سينتهي بعد بضـع ساعـات. كما ذكـرت أيضـاً مـوافقـة العـراق على تنفيذ القـرارين ٦٦٢ و٦٧٤. ويـطالب الأول بعـودة الحكومة الشرعية إلى الكويت والثاني يـطالب بدفـع التعويضـات عن الخسائر التي ألحقها العراق بهذا البلد.

وقـد أرسلت هـذه البـرقيـة على الفـور إلى مجلس الأمن الدولي الذي كان منعقداً نهار ٢٧ شباط (فبـراير) أي ليـلاً بتوقيت نيـويـورك. ورجـا أعضـاء مجلس الأمن الـدولي استخـدام القنـاة السوفياتيـة مرة أخـرى لاخطار العـراق بأن من الضـروري اعتراف

هذا البلد فوراً بكافة قـرارات مجلس الأمن الدولي ـ بـلا استثناء ـ التي صدرت اثر الأزمة الكويتية.

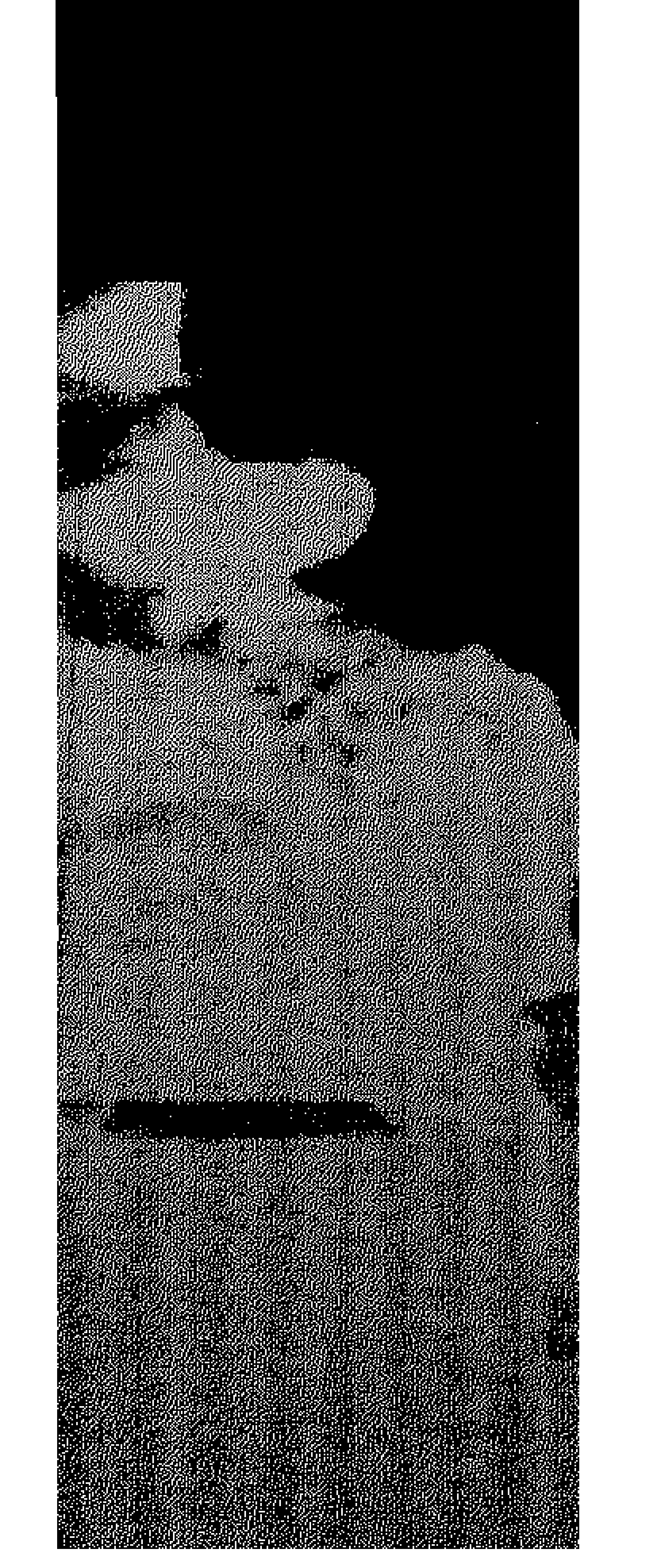
بعـد بضع سـاعات على إرسـال هـذه البـرقيـة إلى القيـادة العراقية أكدت هذه القيادة موافقتها على هذه القرارات كافة.

وحتى تلك اللحظة كانت كافة القوات العراقيـة قد غـادرت الكويت.

وفي ٢٨ شباط (فبراير) في الساعـة الثانيـة و٤٥ دقيقة بعـد منتصف الليـل اتصل جيمس بيكـر هاتفيـاً بالكسنـدر بسميـرتنيـخ وقال له إن الولايات المتحـدة قررت وقف العمليـات الحربيـة رداً على موافقة العراق على تنفيذ كـافة قـرارات مجلس الأمن الدولي المتعلقة بأزمة الكويت.

وهكذا حلت مرحلة جديدة بـالغة التـوتر هي مـرحلة تصفية الأزمـة في منطقـة الخليج. لقـد سكتت المدافـع وعلى السـاسـة الآن أن يقولوا كلمتهم الحاسمة.

الفهرس



كانت المقالات التي كتبها المبعوث الرئاسي السوفياتي يفغيني بريماكوف، عن حرب الخليج، الوثيقة الرسمية الوحيدة، الموقعة من صاحبها، والتي تكشف في نفس الوقت، حقيقة الحرب التي كان تجنبها ممكناً.

على أية حال، قيمة ما كتبه بريماكوف مزدوجة، فهو كلام من موقع القرار في دولة الشريك الثاني في اللعبة الدولية الكبرى، ومهما كان حجم دور هذا الشريك ضعيفاً إلا أنه يبقى الشريك، الذي يعرف ويرى ويسمع، ويستطيع من موقعه هذا ان يقول.

أما القيمة الثانية، فهي أن بريماكوف الذي اختصر بعنوانه مضمون مداخلته الغنية بالمعلومات، الوفيرة بالمقابلات، قد أشار عبر هذا العنوان، إلى حجم الخطيئة بل الجريمة التي اقترفها رئيس العراق.